عند الحدود الجنوبية الغربية من الجولان

قصصٌ وبطولاتٌ دارت أحداثها في عام النكبة وبَعْدَها على طرفي الحدود بين سورية وفلسطين.

عمر بكر المدني

رسوم: إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2010 - 1431

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب 31426 - هاتف: 2248433 - فاكس: 2248432
E-mail:almaktabi@mail.sy

الإهـــداء

- إلى روح أمي وأبي المدفونين في تراب الجولان.
- إلى أرواح الشهداء الأبرار الذين ضحوا في سبيل الوطن.
- إلى الرجال الشجعان من قواتنا المسلحة الباسلة الذين وقفوا طوداً شامخاً بوجه الطامعين في وطننا الغالي.
- إلى أهل الجولان في داخله وخارجه وهم يقاومون المحتلين الصهاينة بأرواحهم ودمائهم، حتى تحرير آخر حبة تراب من الوطن المغتصب.

وكما قال الرئيس القائد بشار حافظ الأسد:

(إن السَّلام بين سورية وإسرائيل لن يتحقق إلا بعودة الجولان كاملاً حتى خط الرابع من حزيران 1967).

- إلى المقاومين الشجعان على أرض فلسطين وجنوب لبنان والعراق والصومال وروابي الجولان، الذين يحمون الوطن العربي من الغزاة والصهاينة.

مقـــدمة

هي أحداثٌ وملاحم جَرَتْ عِنْد طَرَفي الحدود المصطنعة التي خَلقَها الاستعمارُ بين الدول العربية ليفَرقَها، في منطقة (الزوية) بين ثلاث دول هي سورية والأردن وفلسطين، وفيها تقع بحيرةُ (طبريا) المستودع والخزان المائي العذب بأبعادها المتـامية بين جبال الجليل والزوية، وبمساحة تبلغ 165 كم2 حيث تشرف عليها قرى الجولان من الشرق كـ: (الحمة والتوافيق وانزرعة عز الدين وكفر حارب وفيق وسكوفيا وشكوم والدير عزير والفريج والكرسي والدوكا ونقيب والحاصل والحسينية والمحجار وقرى البطيحة) المنتشرة على شاطئها الشرقي كالعقد حول جيد فتاةٍ جميلة، أو كالنجوم تطل عليها من الشرق تزيدها ألقاً وجَمالاً وتعطيها هالةً من الكبرياء التي وهبها الله تعالى لهذه المنطقة منذ الأزل، وقد أرسل رسله إليها لهداية الخلق والناس أجمعين، وفي الطرف الغربي تشمخُ مدنٌ وقرى في فلسطين تتلألأ

بين جبال الجليل والسهول الممتدة حتى جبال الناصرة، وشاطئ البحيرة الجنوبي والغربي مثل: (سمخ والحمة وطبرية ولوبيا وصفوريا وصفد ...) وغيرها، وكلها بُلدانٌ وقرى عربية يسكنها أقوامٌ عربٌ من سالف الزمان.

عاشوا فيها وعايشوا الشعوب المجاورة لهم بالمحبة وحسن الجوار فتآلفوا معهم وتصاهروا وتقاربوا، وكانوا في ديارهم وقراهم معززين مكرمين في أرضٍ معطاءةٍ فيها تكثر الخيرات وتنبعُ العيون بالماء الزّلال المتدفقِ في الوديان والسيول والغدران.

وقد عَمَّروها بالبُنْيَان وزرعوها بالجنان وكانوا في الجولان من أسعد السكان.

إن هذه المدن والقرى في هذه المنطقة مترابطةٌ مع بعضها بصلاتٍ وطيدة إنسانية وقومية وتجارية، وبالقربى والتصاهر فيما بينها.

حتى جاء الاستعمار البغيض وقسمها وفرقها ووضع الحدود، وزرعَ كياناً عنصرياً صهيونياً في فلسطين الحبيبة؛ فقتل وشَرَّدَ وهدم وعاث فيها فَساداً كونه مدعوماً من دولٍ ومنظوماتٍ استعمارية

تَمدُّه بكلِّ أسباب القوةِ والجبروت، حتى استولى على فلسطين وامتدَّ إلى مناطق في سورية ولبنان ومصر.

وقد ذكرت في هذه الأحداث التي جرت بين الحدود المشتركة وعلى أطرافها مدى الترابط فيما بينها، ووحدةَ المصير والعيش المشترك والتآخي والتلاحم في ردِّ الهجمةِ الشرسة التي حدثت في هذه المنطقة والوطن العربي، ولنا وطيد الأمل أن يشعر كل عربي في مشرق الوطن وغربه وخَليجه أن القضيةَ قضيته والوطن بحاجة إليه فيهبَّ لنصرته والدفاع عنه.

المؤلف

عمر المرعي

الجولان

لغوياً: الجبل المنبسط المترامي الأطراف، وقد اشتُقَّ من فعل: جالَ، وكانت قطعانُ الماشية تجولُ فيها للرعي حيث تكثر مصادرُ المياه والعشب الأخضر، وتجري السيولُ والوديانُ والينابيع الصافية في أرضه. قال ياقوت الحموي: هو قريةٌ وقيل: جبلٌ - من نواحي دمشق ثم من عمل حوران.

وقال ابن دريد: يقال للجبل. حارث الجولان، في قول شاعره:

بكى حارثُ الجولان من فَقْدِ ربه

وحورانُ منه خائفٌ متضائِلُ

قال ياقوت الحموي: إن الجيدور والجولان كورة واحدة، والجيدور كورة من نواحي دمشق فيها قرى تقع شمال حوران.

ويقع الجولان في أقصى الغرب من أراضي محافظة درعا وجنوب دمشق.

وينحدِرُ تدريجياً من سفح جبل الشيخ (حرمون) إلى ضفاف وادي اليرموك من ارتفاع حوالي 1000م فوق سطح البحر إلى نحو 200م تحت سطح البحر في منطقة بحيرة طبريا وينابيع الحمة.

لا يوجد أي مصدر يشير إلى وجود تاريخ مستقل للجولان عن سورية لا حديثاً أو قديماً، ويعتبر الأموريون الأقوام العربية الوافدة من أرض الجزيرة العربية إليه أواخر الألف الثالث قبل الميلاد من أول الشعوب التي استوطنت في الجولان وسورية، وأهم المدن التي سيطرت هي ماري أو عمريت، ثم نَدِمَ إليها الكنعانيون والفينيقيون. وعمَّ اسم كنعان ليشمل فلسطين حتى الساحل السوري، وَوَفَدَتْ إليها القبائل الآرامية التي حكمت من الفرات حتى دمشق ومنها الجولان، ثم حكم البابليون والفرس والرومان والبيزنطيون حتى عام 636م ومع وجود إمارة الغساسنة وعاصمتها (الجابية)

وكانت في عهد الدولة العربية الإسلامية مركزاً للجند عند فتح بلاد الشام، ونزل فيها الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قدم إلى بلاد الشام.

كما كانت المنطقة مكاناً مقدساً عند المسيحيين زمن السيد المسيح - عليه السلام - ومسرحاً لنشاطه، وقد ذكر ((معجم البلدان)) عن دير فيق أنه ديرٌ قديم جداً، في ظهر عقبةٍ تنحدرُ إلى الغور من أرض الأردن، ومن أعلاه تبدو بحيرة طبرية ومدينتها، وهذا الدير فيما بين العقبة والبحيرة في لحفِ جبل منقورٍ في الحجر، وكان عامراً، والمسيحيون يزعمون أنه أول دير ديني للنصرانية وأن المسيح عليه السلام كان يأوي إليه وكانت دعوتهُ للحواريين، ومن يطرقه من النصارى يعظمونه بجلالة قدره، وغيرهم يقصدونه للتنزُّه والفُسْحَةِ.

وفي عام 1981م اتخذ الكيان الصهيوني الغاصب قراراً باطلاً بضم الجولان إليه، واعتبرت الأمم المتحدة هذا القانون ملغياً وغير شرعي وليس له أي أثر قانوني، واستنكرت قرار الكنيست الإسرائيلي وأصدرت عدة قرارات تدين هذه الإجراءات العدوانية وتهديم مدينة القنيطرة وقرى الجولان المحتل بقرارها رقم 3740 تاريخ 29/ 11/ 1974م

وأنه خَرْقٌ خطير لاتفاقيات جنيف.

وتقيم إسرائيل العديد من المستوطنات على أراضي الجولان للمهاجرين اليهود وللجنود الإسرائيليين وعائلاتهم، وهم يستغلون خيرات الجولان ويسرقون آثاره التاريخية ويُغيّرون معالمه ببناء العديد من المستعمرات عليه.

وصف الجولان

بلادٌ جميلة مملوءة بالنور والندى والمطر، تجري بها [illegible] وتمتلئُ بالبحيرات، وفي سمائها تتراكمُ السحب [illegible] من فوق أمواج البحيرة، وفي الأفق أسرابٌ من طيور [illegible] كالدرّاج والزرزور، والبطّ والسنونو والسمّان والزرعي، وتُغرّدُ البلابلُ في الصّباحات النّديّة وهي تتنقّلُ فوق الأغصان بين شجر التّين والرّمّانِ والعنبِ والتوتِ، وطيورُ الدوري تتقافز فوق أشجارِ الحور الباسقةِ مُطْلِقةً زقزقات الفرح وتوحي [illegible] خفّة، والشّحرور ينشِدُ ما يُشنِّفُ الآذان بين شجر الصنوبر، وعند حرير الجداول في البُستان وطائرُ الهُدهد تزيّن بأجمل الألوان تحت الأفنانِ، وكأن ربّك أسكنه هذا المكان مكافأةً على إخلاصه للنّبيّ سليمان - عليه السلام -، وأسرابُ الحَجَل تنادي بعضها بين السّفوح وشجر السّدْر، والزّرعُ يمتدُّ على مدى نظرِكَ بخضرة تُبهرُ الأبصار.

كلُّ شبرٍ في روابي الجولان يحكي ألف قصَّةٍ من حكايا الأنبياء والأبطالِ والشجعان والأشاوس الذين دافعوا عن أرضه . وحموه من الطامعين مثل خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس .

وحكايا أبنائه الذين عاشوا في ربوعه وعشقوا الأرض والهواء والماء والسماء فأقاموا واستقاموا قُدوةً للبَشرِ ؛ يُكرّمون الضّيف وَيَحْنُونَ على الضَّعيف ويُقَدّمون القرى لِعَابِرِ السَّبيلِ.

شتاء الجولان مدرارٌ وغير ضار ، يغذي السيول والوديان من فوق رؤوس الجبالِ المكسُوَّةِ بالثلوجِ في جبل الشيخ الأَشَمِّ الذي أصبحَ مَوْئلاً للبطولةِ وَعُنواناً للرجولةِ أيامَ حربِ تشرين المجيدة ، وفي الجولان السهولُ والوديانُ الممتدَّةُ حتى ينابيع الحمَّةِ العَجيبةِ بمياهها الساخنةِ الكبريتيةِ ، والتي تقعُ تحت مستوى سطحِ البحرِ وبجانب بحيرة طبريا المخزن الكبير لمياه الجولان.

وعليك يا جولان كم غنّىٰ الأهل على رُبوعك شعراً ومواويلَ تعبيراً وإخلاصاً عن حُبّهم لك ، وهذا هو شاعرك ينادي

ومازال حتى ولو رحَلَ فما رحلَ قوله:

أنا إن كنتُ على الجولان أَقْصُدْ

وله أشتاقُ دوماً وأُمَجّدْ

إنَّه مَسْقَطُ رَأسي وجدودي فيه تَرْقُدْ

وبه الشحرورُ بالألحان غَرَّدْ

ومن الغزلان أفواجٌ تُوَلّدْ

إنه الجولان داري فيه أرتاحُ وأسْجُدْ

لا تلمني فهو في نفسي عزيزٌ ومُخلّدْ

أنا ألقاهُ صباحاً ومساءً في صلاتي أتهجَّد

فهو جولانٌ أبيٌّ يرفضُ الضّيمَ ويصْمُدْ

دعواتٌ أنا أدعوها له شكرٌ مؤبَّدْ

لا أرى كلَّ همومي وتراني فيك أَسْعَدْ

كم تمنيتُ لِقاءَ الوطن الغالي ولو كنت مُمَدَّدْ

ليالي الشِّـــتاء في الجولان

كانت جَدّتي تضع الجِرارَ في حُجُرات بين الجُدرانِ الطينيَّة وهي مملوءة بالزيت المستخرج من الزيتون، والسمن والعسل والجبن والدبس والزبدة، وكل ما نحتاجه لمؤونةِ الشتاء القاسي. كما أنها تملأُ صناديقها باللوز والزَّبيب والتين اليابس وبذور البطيخ المحمَّص والقضامة. وهي تُـخْرجُ منها وقت السهراتِ الطويلة في شتاء الجولان خاصة عندما يَحْضُرُها الجيرانُ والأقاربُ والخلّان، فتَحْلو السهراتُ وتُقوّى أَواصر المحبةِ والقربىٰ. وتُقدّم فَنَاجينُ القهوةِ للحاضرين إنها مشروبهم المفضل وهي تغلىٰ على نارِ الموقد العادئةِ ورائحتُها تفوح وتنعِشُ أنفاسَ السّاهرين، وأما الشاي فهو لازمٌ في كلّ سهرةٍ تُصَبُّ منه كاسةٌ تِلوَ أخرى ، وقد تعوَّدَ على احتسائِه أهلُ الجولانِ في مجالسهم وحتى على موائدهم.

الجوُّ مطيرٌ ومنذ أسبوع لم ينقطع انهمارُهُ، إنها أواخر شهر شباط حيث يطول الليل ويشتدّ البردُ وتكثر السّهراتُ والمطر ينقر على الأسطوح ترنيمةً أدواتُها حبات البَرَد وتشتدُّ الريح الغربية، والساهرون حول الموقد يستأنسون بالنار المتوهجة من موقد تلتهبُ فيه بقايا دَريس لزيتون مع حطب الأشجار اليابسة من الكروم والبساتين.

إنها الأيام القاسية من فصل الشتاء وطالما تَنَبَّأَ بها الفلاحون، وهم يردِّدون قصة العجوز التي لا حول لها ولا قوة مع الأيام الأواخر من شباط وأوائل آذار المطير.

وفي ظُلْمةِ الليل الحالك بالسواد والعاصفة تشتَدُّ ونباحُ الكلب لم ينقطع وبدا وكأنه في عِراكٍ مع أحدٍ ، فما كان من والدي إلا أن تناوَل بارودتَهُ (الجفت) وخرج ليرى ما يحدثُ ، إن الكلب ينبئُ بوجود أحدٍ في الدار وهناك خطرٌ على السكان والحيوانات، تَفقَّدَ والدي الزريبة فوجدها مغلقةً والحيواناتُ فيها ساكنة وموجودةٌ بأمان، ولكن الكلب مازالَ في حالةِ استنفار يروحُ ويَغْدو بين هجومٍ وتراجعٍ وهدفه أشجارُ الصَّبَّارِ في طرفِ الدار ، وهناك رأى والدي عينين تبرقان وسط العتمة تترصَّدُ كي تنقضَّ عندما تحين الفرصَةُ ، إنّهُ ضبعٌ جارِحٌ اشتدَّ به الجوعُ وأراد افتراسَ ما يَسُدُّ جوعَه فقرَّرَ مهاجمةَ دورِ القريةِ لعَلَّه يَصلُ إلى مَأربِه.

تأكّدَ والدي من مكان الوحش وقد اشتدَّت جرأةُ الكلبِ عليه عندما وجَد من يُعينُه على هذا المعتدي، وهكذا صوَّبَ سلاحَه نحو الهدف مكانَ وجودِ الضبع، وأطلقَ عليه النّارَ فأصدَرَ صيحةً عاليةً وقد أصيبَ بطلقةٍ مُركّزةٍ ولم تكن قاتلة، ولكنه تسلَّلَ هارباً رغمَ جراحه عبرَ الحقولِ والكروم.

ولما أصبح الصباحُ تنادينا نحن الأولاد، أبناء الجيران وقررنا البحث عن هذا الوحش وما حلَّ به. صحا الجو وتوقف المطر عن الانْهمارِ، وأشرقت الشمس بأشعتها الصباحية الجميلة وهي تعطي الضوء والدفء للكون. وانقَشَعَتِ الغُيومُ وَظَهرَتِ الطيورُ مُزَقْزِقَةً فوق الأغصانِ، وانتشرت الدّواجن تبحث عن طعامها، وَثغتِ الحِمْلانُ تنادي أمَّهاتِها إنها فُرجَةٌ وفُرصَةٌ للناس والحيوانات لالتقاط الأنفاس والتَّملْمُل خارجَ البيت والقرية التي حاصرتها الأمطار منذ أسبوع.

ذهبنا نخوض في البركِ والسيولِ لمتابعةِ آثارِ دماء الضاري وهي تبتعدُ حيث كان يَجُرُّ نفسَهَ بعيداً عن القريةِ، حتى وصلنا مجرى السيل الكبير المتدفق بالمياه الذاهبة إلى الوادي الذي يَزخرُ بالكثير من الغدران وما فيها من أسماكٍ، وهو يهدرُ وكأنه بحرٌ هائج من كثرة ما طفَحَت به المياه جارفةً معها التربة والطين ومتجهة إلى بحيرة طبريا التي كانت مترعة بها احْتَوَتْ، إنها المخزن المائي الكبير صَنَعها الله وَوَهبها لعبادِهِ الصالحين كي ينتفِعوا بها وما احتوت من ماء وسمك شهي، وفي كلّ الأوقات يشربون ويسقون مواشيهم وزروعهم، ويتمتعون بِجَوّها ومائها فيَركَبون الأمواج يغسلون ويغتسلون خاصة في الصيف الحارّ ويصطادون السمك الطري، وهي للناس هبةٌ في وقت الشُّحّ والعُسْرَةِ أو الازدهار والتّرَفِ، إنها مصدر الرزق والخير والجمال منذ الأزل على مرّ التاريخ حيث انتفع بها الأقدمون ومشت إليها الشعوب تنهل من خيراتها،

وجاء إليها الأنبياء فاغتسلوا بها كالسيد المسيح -عليه السلام-

الذي تعمد بها ومعه تلامِذَتُهُ المؤمنون.

فكيف بها اليوم ترزَحُ تحت وَطْأَةِ الصهاينة المعتدين، شُذّاذِ الآفاق وقد جاؤوا بالمستوطنين من كل أنحاء العالم واحتلوا فلسطين الحبيبة وسيطروا على هذه البحيرة يمنعون مياهها وما بها من خيرات عن أصحابها الأصليين، إنه الاستيطان الرهيب المدعومُ من دول الغرب الاستعمارية والولايات المتحدة الأمريكية؛ لتحقيق مآربهم في إرضاخ شعوبنا ونهب خيراتنا والسيطرة على مقدراتنا.

ولكن الأمل معقودٌ على شعبنا العربي الذي عرف مطامعهم وكشفَ مخططاتهم وعلى جيشنا الأَبيِّ أن يتصدّى لهم كل يوم في معارك الشرف حول البحيرة وعلى طول الحدود، ويذيقهم الهوان ويوقع بهم الخسائر الموجعة.

قلت لأصحابي: هيا بنا نبحث عن مَكامِنِ الفِطرِ الذي خَبِرتُ مكانه من سنوات في هذا السفح، فَلا بُدَّ أَنَّهُ قد ظهر مع هذه الرُّعودِ والبرق المتكرر في الليلة الماضية، فتراكضنا نبحث عن عَلامات مكامن الفطر والتي وَضعتُها منذ زمَن طويلٍ، فوجدناها وقد انتشرت مثل المظلات المنصوبة على شاطئ البحر.

فعبَّأنا منها مناديلنا وطواقينا وصُرَراً عُلِّقت على زنانيرنا وَصِرنا نَأمَلُ بفطائر ساخنةٍ لذيذة مع البصل وزيت الزيتون، وهي تُشوى في تنور دارنا ومن يد جَدَّتي المشهورة بطهيها وخبزها.

وتراكضنا نحو القرية وقد طلعت الشمسُ ساطعةً بنورها الوَضَّاء وأشعَّتها المَتلألِئَة. نظرَ الشبابُ فإذا بالرعاة قد جمعوا أغنامَ القرية وساروا بها نحو المرعى، إنها فرصة حيث سَمَحَتْ لهم الأنواءُ بالخروج بعد أن حُبست المواشي عدة أيام بسبب المطر المتواصل، فأوْحَلَتِ الدروب والطرقات وكَثُرت البرك والسيول،

وأصبح الوصول إلى المرعى فيه مَشَقّةٌ وَخَطَرٌ على المواشي ، والذّئابُ المفترسة تتعقبُ القطيع.

وقد ابتعد أحدُ الرعاة ودَخلت الماعزُ والغنم في مخاضة موحلة ولم تعد تقدرُ على الخروج فيها، وبدأ يطلبُ النجدة، وكنا أقربَ المنقذين وأسرعنا نحمل المواشي وننتشلها من الوحل حتى أوصلناها إلى بَرِّ الأمان رغم صعوبة المهمة وخطورتها.

وكَان أن وَلدَت إحدى الماعز توأمين جميلين مُنقطين ببقعٍ بيضاءَ زاهية ، فَحملناهُما مَلفُوفين بثيابنا خوفاً عليهما من البرد.

إنها الحياةُ في قريتنا (سكوفيا) حيث تَرَعْرَعْنا في ربوعها وعشنا حياتنا كمَا عاشها قبلنا أباؤُنا وأجدادنا أُباةٌ كِرام، يُحبُ بعضنا بعضاً وكأننا أسرةٌ واحدةٌ ، نتشارك الأفراح والأتراحَ، وَحُبُّنا لبعضنا نابعٌ من حُبنا لهذه الأرض لهذه القرية لهذا الجولان.

حصادُ حقل القمح في الجولان

نظر الفلاح النشيط أبو محمود إلى حقله الطويل العريض على مد عينيك، ووقفَ وسط سنابل القمح الشامخة رؤوسها، وهي تميل يميناً وشمالاً فرحةً بزيارة هذا الفلاح، إنه صديقُها وصاحبُها فهي تعرفه منذ كانت حبة في باطن التربة وعندما أنبتت ورأت النور والهواء وكبرت أوراقها وساقها وهو يرعاها ويُعشِبّها ويحميها، ويدعو ربه أن يحفظها ويُديمها، إنها النعمةُ إنها الحياة للإنسان والحيوان والطير وحتى النمل فهو يُعَبّئُ مخازِنَهُ منها مؤونةً للشتاء.

رأى أبو محمود أن السنابل قد اصفرت وهي مكتنزة بالحب، فأخذ واحدة منها وفركها في راحتيه وكانت ناضجة تسبّحُ ربها إن فيها ثلاثين حبة منتفخةً بالحياة، تعطي الخَيْرَ للناس حتى يعيشوا ويُسَبّحوا ربهم على هذه النعمة التي وهبها لهم. إنه حقلٌ واحدٌ من حقول أرض الجولان الكثيرة المنتشرة في سهوله ووديانه، ونتاجُ تعب وعرق أبنائه الكادحين،

فلم يصبح هكذا إلا بجهدهم وعرقهم فقد حَمَّلوها بالعمل والحُبّ والأمل، فأزاحوا منها الحجارة والشوائب وسَمَّدوها بالزبل والترائب، وحرثوها بالسكك والمعاول وجَرَّوا فيها المحاريث وراء ثيران قوية أعدوها لهذه المهمة الشاقة بكل فرح وعناية.

قال الفلاح النشيط: لقد حان قِطافُ السنابل والخيرات وطالما تعبنا وانتظرناها بصبْرٍ وجَلَدٍ، وهاهي الساعة قد حانت والفرح قد اكتمل وربنا أعطى الخيرَ وأجزل العطاء.

مرَّ في الطريق الفلاحُ أبو قاسم الذاهب إلى حقله المجاور، سلم على جاره أبي محمد وفرحا بلقائهما وبهذا المحصول الجيد الذي وهبه الله للناس إنها العام الخيِّرَة التي وعَدَ بها للمؤمنين العاملين ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ صدق الله العظيم

قال أبو قاسم العارفُ بالأعمال الزراعية والخبيرُ بمواعيدها: إن جني المحصول قد حان يا أبا محمد والجو مناسب، فالندى يصب كلَّ يوم فعلينا اغتنام الفرصة، فإن وجود الندى يساعدنا على حصد القمح،

فلا تتقصفُ السنابل وتقع على الأرض،

كما أن الإسراع بالحصاد يجنبنا المخاطر الناجمة

عن الحرائق التي يُرسلها

لنا العدوُّ الصهيوني الغاشم

الذي ينتظر كل عام حتى يحين وقت جني المحصول فيرسل النيران مع الريح الغربية في الهشيم المحاذي لحقولنا وزُروعنا.

وقد اتفقا أن يذهبا إلى مختار القرية كي يضعا خطةً مع بقية الفلاحين للعملية الحصادية الجماعية؛ لأن فيها فائدةً للجميع وتنظيماً للعمل فلا يتضرر أحدٌ منها. وهكذا رتّبت الأمور مع بقية الفلاحين، ونادى المنادي أن حصاد القمح سيبدأ غداً في الحقول الغَرْبية للقرية، وعلى الجميع التواجد في عملية موحدة متكاملة. هَيّأ الناس عُدَّتهم وشحذوا مناجلهم وأصلحوا حَمّالاتِ القمح والحبال والعربات. وكانت المسيرةُ نحو جني الخيرات في صباح اليوم التالي، فأمسك أبو محمد (الحاج محمود) المنجلَ وقبضَةً من نبات القمح المتطاول في الهواء وجَزَّهُ بضربة فلاح نشيط، فهبَّ الجميع بعده وصارت أكوام الحصاد تتناثرُ وراءهم في سطورٍ منتظمة، أما البَنَات العاملات فقد شَدَدْن الزّنانيرَ على خصورهن ولبسنَ لباس العمل،

وبدأن بجمع هذه الأكداس وترتيبها في الأحمال على ظهور الدواب فيشدّها الرجادون الشباب اليافعون، ويسرعون في نقلها إلى البيدر الذي هيّأته أم محمد ورتبت مكان القمح، وكانت تعطي التوجيهات للرجادين والحمالين ليسهُلَ العملُ فوق هذه المساحة لتستوعب الأكداس القادمة بالخير العميم الذي هو نتاج عملٍ قامت به مجموعة نشيطة وعلى رأسهم الحاج العتيد، وهو من عطاء ربٍ كريم في سنةِ خيرٍ وبركةٍ كان فيها المطر مدراراً ومتواصلاً، ودعواتُ الناس المؤمنين تزيد المحصول حباً مباركاً فيه حياةُ الناس ودوابهم، وكما وعد ربك المؤمنين

﴿ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ ﴾

كنت تسمع صوت المناجل وهي تقطع سويقات القمح وهفيف السنابل عندما تتمايل مع حركات الأيدي، والنسمات العذبة القادمة من فوق صفحة الماء الصافي في البحيرة الهادئة ومن أمواجٍ متلاحقةٍ قادمةٍ نحو الشاطئ الشرقي،

تريد أن تلحق كلٌّ أختها محملةً بالسمك الذهبي الطازج الطري.

أما أبو محمد فكان ينشد ويناشد الزرع والمنجل والحصادين ويحث الهمَم بشد العَزَائم؛ كي يكملَ العَمل والعملية بسرعة وإتقان قائلاً:

شدوا الهمَّة (فَيُرَدّدُ الجميع): شدَّينا

سمّوا بالله (فَيُرَدّدُ الجميع): سمّينا

زرع مبارك (فَيُرَدّدُ الجميع): تُعطينا

قمح إحمالك (فَيُرَدّدُ الجميع): حَمِّلنَا

هذا أشمالك (فَيُرَدّدُ الجميع): شمّلناه

وترتفع وتيرةُ العمل ونتاجه أكوامٌ من الأكداس، والرجاجيد تسرعُ في نقل القمح إلى البيدر.

ومن ورائهم العجوز عيشة تلتقط السنابل المتناثرة والساقطة فتضعها في جعبة تجنَّدت بها وهي تأمل بالمزيد، حتى تؤمن مؤونتها في عام كامل،

وأما الرعاة فكانت لهم فرصةٌ لإحضار قطعانهم كي تلتهم ما تجده وراء الحصادين فتشبع الأمهات وتَدرُّ الحليب للناس وللحملان،فيزيد الخير وتنتشرُ الخيرات وكلها من نتاج هذه الحقول والأرض التي باركها الله في هذا العام وكل عام.

رأت الحاجّة أم محمد البيدر يكبرُ ويكْبُرُ في كل ساعةٍ، ومع نهاية النهار كان الكداسُ مهولاً والسنابلُ تزخرُ بالحَبِّ الذهبي الجميل.وفي الصباح التالي طلب الحاج أبو محمد إكرامَهم وإعْداد غداءٍ لكلّ العاملين تُحْضِرُهُ لهم إلى الحقل، وهم يحتفلون بنهاية حصاد هذا الجزءِ الذي بارك الله لهم فيه، وأن تحسب زيادة لكي يُطعموا الغادين والجائعين ممن يتواجد في هذا الحقل الخير الجميل، وعندما أكمل الحصادون عملية الحصاد الأولى كانت الأم ترسل لهم أطباقاً من الطعام الشهي الساخن والخبز المحمّر والدجاج المستوي بالفرن.

ولما رأى أبو محمد جاره الذي بجانبه وهو يجاهد مع زوجته وابنه الصغير في جني زرعه، وأنَه قد تأخر كثيراً عن بقية الفلاحين في الحقول المجاورة وهو شيخٌ كبيرٌ وسهمه قد بارك له الله فيه، فكان لا يقدر على مجاراتهم بالعمل، فأرسل له من يدعوه إلى مائدته هو وزوجته ومن معه، فاعتذر الشيخ له بحجة أنه يريد استكمال عمله قبل نهاية النهار، فأصر عليه وأن عمله سوف ينجز إنْ شاء الله، وبعد أن أكل الجميع وشربوا الشاي وحمدوا الله وأثنوا عليه، هُمْ ومَن تواجَدَ في حقلهم، ودعا دعاء الشكر لله تعالى وأن يبارك الله لهم في غلتهم هذا العام وكل عام. حمل الرجالُ والبناتُ عدتهم وتوجهوا إلى حقل الشيخ المجاور الذي لم يكمل حصاده، وما هي إلا ساعة حتى كانوا قد أنهوا حصاده وأصبح أكواماً مهيأةً لنقلها إلى البيدر، فأعانوه على ذلك وكان هذا فرحاً شاكراً لله والحاج أبا محمد وعماله الكرام. ويتابعُ الزُّرّاعُ حصادَ زُروعهم في غرب البلدة وشرقها وجنوبها وشمالها، وأصبحت البيادر مهيأةً لجني المحصول الجديد .

البَيْدَرُ وجَنْيُ الغِلال

انتهىٰ موسمُ الحصادِ وانتهى دَرْسُ أكداسِ السنابل التي أصبحت كومة من حبات القمح الذهبي، يتباهى بها أصحابُها وكل من أنتجها وتعبَ في استخراجها من حراثين وحصادين ورجادين ودراسين، وكلٌّ يأمل في حصةٍ مُجزيةٍ من هذا الكوم المهول الثمين. وقف الحاج أبو محمد صاحب الغلة وكان يشكر ربه على هذا العطاء الجزيل والذي يكفي أصحاب الحقوق ويملأُ المخازن ويسدُّ حاجة المحتاجين، إنه الخير العميم عطاءٌ من رب العالمين! رَدَّدَها أبو محمد: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ صدق الله العظيم.

وقف أبو محمد جانب كُدّاس القمح الذي أصبحَ جاهزاً تُبرق حَبّاتُه كالذهب، وينتصبُ كالهَرَم قاعِدَتُه واسعةٌ ورأسه عالي المتراس.

قالت الحاجة أم محمد: ضع على كوم القمح خرزةً زرقاء

من عيون الحاسدين، فرد عليها أبو محمد: لقد بارك الله

في هذه الغَلَّةِ وهو يحفظها كي نعطي كلَّ ذي حق.

تنادى الأبناءُ الثلاثة حول كومة القمح وبقوا طوال الليل وحتى صباح اليوم التالي؛ وهو يوم الاثنين الذي يتبارك به الناس، وعندما حضر صاحب البيدر ومعه مكياله الوافي وحوله أهله صِغارٌ وكبارٌ وجاء أصحاب الحقوقِ والحاجات وطلابُ الصّدقات.

قال أبو محمد: الحمدُ لله رب العالمين، فما أَكْرمَك يا الله، لقد أعطيتنا عطاءً جزيلاً وباركتَ لنا هذه الخيرات ومَنَنْتَ علينا حتى نُعطي كلَّ ذي حقٍ حقه وكلَّ ذي حاجةٍ حاجَتَـهُ.

رأى أسرابَ النملِ وهي تحملُ حباتِ القمح من البيدر مؤونةً لها في فصل الشتاء، وكذلك العصافيرَ وهي تُشبعُ حواصلها، والدواب وهي تقتاتُ من خير هذا البيدَرِ، قال الحاج أبو محمد. إنه الخير الذي باركه الله فهو يكفي الجميع إنْ شاء الله وكان يُرَدّدُ: ((من زرعَ زرعاً أو غرس غرساً وأكل منه إنسان أو دابةٌ أو طير إلا كان له به حسنة)) صدق رسول الله ﷺ.

ظهرَ بائعُ الأقمشةِ عندَ دار أبي محمد يحملُ أنواعَ الأقمشة النسائية على دابَّتِه من غاليةٍ للثمن وغيرها يعرضها على النِّسْوة في البلدة وهن يتحلقنَ حوله؛ إنه موسم البيدَر ولا بد من كسوةٍ لهن مع طلوع الغَلة، لاقتناء الجديد حتى يظهرنَ بالمناظر الحسنة أمام بُعولَتِهنَّ وفي المناسبات. أما بناتُ أبي محمد فقد أخذن ثياباً جيدةً من القماش وأرسلن البائع إلى البيدر؛ ليَحْصَلَ على نصيبه من قمح البيدر ثمناً لبضاعته التي باعها لهن وعندما وصلَ استقبله الحاج صاحبُ البيدر بالترحاب وأعطاهُ ما طلبَ من ثمن الأقمشة، وزاد عليها أجمل ثوب وأغلاه لزوجته التي تتعب وترعى شؤون داره وأهله. وأما هو فلم يأخذ لنفسه شيئاً لا من قِلَّةٍ أو بُخلٍ ولكنه نسي نفسه، فما كان من البائع إلا أن ألبَسه عباءةً عالية الجودةِ عربوناً على علاقته بعائلة الحاج أبي محمد. نظر الحاج صاحب الغلة الوافرة إلى بيدر جاره الفلاح سالم وقد وَفّى حقوق دائنيه، ولم يبق من غلَّته شيءٌ لعائلتِه وحاجةِ بيته.

وهو يحمدُ الله ويثني عليه، ولكن جاره الحاج أبا محمد أضمر في نفسه عملاً خيراً وسَيَرَ إلى دار الشيخ سالم أحمالاً تكفي عياله وحاجة داره طيلة فترة الشتاء، وذلك تحت جنح الظلام حتى لا يراها أحدٌ.

أما أم محمد فقالت لجارتها عائشة التي تعينها في أشغال البيت وحَلبِ الأبقار والماشية وفي الطبخ، وما أكثر الضيوف في دار الحاج أبي محمد، قالت لها: اذهبي وخذي نصيبك من البيدر، إنه يوم العطاء يوم البركة في كل عام يجود علينا ربنا بالخير ونحن وبما وكَّلنا به نجود بهذه الأرزاق، لكن الأرملة المحتاجة هي وأولادها لهذه المؤونة اسْتَحْيَت ولم تذهب، ففهمت الحاجَّة صاحبة الدار وسيَّرت لها ليلاً أحمالاً تكفيها مؤونة الشتاء وتزيد.

أما العجوز فطوم فأَطَلّتْ على البيدر تتحامل على عكازها فقال أبو محمد: أنت في بالي ولن أنساك إنْ شاء الله تعالى وسوف يصلك نصيبك. وهكذا تعَدَّدَ الطالبون والخير كثير وصاحبه لا يردُّ مُحتاجاً.

كان يكيلُ بمكيال مستوفي المواصفات وهو يذكر اسم ربه ويعدُّ معدادَه، والعاملون معه يَشْدُون بالأهازيج وهم يخيطون الأكياس ويرفعونها على الدواب، وينقلونها إلى مخازن الغلال العامرة بكل منتجات الحقل من حنطة وبرغل وفريكة وعدس وحمص وفول... وغيرها. رأى الحاج أطفالاً حوله يطمعون بحلوى من خير البيدر فأعطاهم، كلٌّ يُعَبّئُ ما يقدِرُ على حمله.

وذهبوا يتراكضون نحو بائع الحلوى يأكلون ويطعمون أهاليهم، جاء حفيده سليم بقطعٍ من الهريسة ووزعها على الحاضرين ووضع في فم جدّهِ قطعةً ممزوجة بالسمن واللوز، والحاج يضحك فرحاً لفرحهم هذا. تذكّرَ أبو محمد قصَّةً حدثت مع والده فأرادَ أن يرويها لحفيده والحاضرين حتى تكون عنواناً لهم لحياتهم القادمة، فقال:

في إحدى السنين القاسية وفي يوم ممطر، ذهب والدي الشيخ محمد إلى الوادي الكبير حيث المطحنة التي تُدِيُرها المياهُ،

وكان يسوق أربعة دواب محملة بأربعة أحمال من القمح

كي يطحنها. ولما عاد وفي طريقه نزل عليه المطر وانهمر مما

بغسل هذه الأحمال، فعرّج على بيت أعرابي يعرفه

واستقبله أهله بالترحاب، فأكرموه وأطعموا

دوابه وارتاح وشرب القهوة المرة والشاي

ولما أرادَ المغادرة، سمع حواراً بين إحدى

النسوة وصاحبة الدار

وهي تطلب بعض الدقيق، وفهم أن الدار خلت من الدقيق عندما اعتذرت المرأة لجارتها وقد خبزت آخر ما عندها هذا اليوم، فما كان منه إلا أن حَمَلَ حملين فقط وتركَ حملين لأهل الدار يأكلون ويُطعمون ويحمدون الله، فما نحن إلا مؤتمنين على هذه الأرزاق. هذا ما قاله والدي ونحن نسيرُ على خطاه، وأرجو منكم أن تتبعوا ما خطَّه لنا من عادات حسنة وأعمال جيدة.لم ينس أبو محمد المؤذن وبعث له حملاً مجزياً من نتاج بيدره وهو يقولُ: إنه يُذكِّرنا كلَّ يوم بالصلاة خمس مراتٍ، ويدعونا لنذكرَ الله في كل وقت فكيف لنا ألا نعطيه حقه؟!.ثم حمد الله وأثنى عليه لهذه النعمة التي أنعمها علينا، ونحن الآن ننعُم بالحُرية والأمن في دولةٍ وطنيةٍ مستقلةٍ لها جيشٌ عربيٌ يحميها ويذودُ عن حُدودها، وها نحن نأمن على حياتنا وأرواحنا وأرزاقنا في ظل حكومات وطنية تدافع عنا وتحمينا، وقد كنا محكومين للمستعمرين يأخذون تعبنا وأبناءنا لخدمتهم،

نحاربُ عنهم في حروبهم عبر الأمصار والبحار. وقد فرضوا علينا نظام الميرة الذي يُصادرُ محاصيلنا ومنتجاتنا ولا يتركون لنا منها شيئاً حتى إن الأهالي في قريتنا قد خَبَّؤوا بَعضَ مؤونتهم في بئر عميقة وأغلقوه جيداً حتى لا يكتشفه المستعمرون الفرنساويون إبان حكمهم لنا. وعندما احتاجوا لهذه المؤونة وفي إحدى الليالي فتحوا البئر ونزل رجلان إليه ليُخرجوا القمح من مَكْمَنِه فلم يخرجوا أوْ يُخرجوا شيئاً، فأرسلوا غيرهما وكان مصيره مثلهما، فعرفَ أحدُ الحاضرين المتعلمين ماذا حدثَ وسَبَبَ تَسَمُّمِهِ. فأحضروا قِربَةً وضعوها في رأس أحدهم وأنزلوه حيث أخرجَ جثتين هامدتين وآخرَ بقي به بقية من نفس. فَأُسْعِفَ وعادت له الحياة. هذا ما حدث في قريتنا (سكرفيا)

واليوم نَحْظى بحماية جيشنا وقواتنا الوطنية التي تحمي الحدود والأرض والسكان والمحاصيل، وتَرُدُّ الصهاينة الطامعين في أرضنا ومقدراتنا بعد أن احتلوا فلسطين وقتلوا وشردوا أهلها.

هم يرسلون علينا طائراتهم لتقصفنا وتقتل شعبنا حتى نترك أرضنا وديارنا ليسهل عليهم غزوها واحتلالها. نبّه أبو محمد وأنه قد أطال الحديث ومن حوله من ينتظرُ كرَمَه وعطاءه. ولكن حفيده الصغير كان أثناء الحديث يوزع عليهم الحلوى من راحة الحلقوم والهريسة التي اشتراها من دكان جانب البيدر بقمح أخذه من البيدر. قال الشيخ: اتركوا الدَّورَ لي الآن. وتناول المكيال (الصاع) ونادى المرابعين (الحراثين) وطلب منهم أخذ حصصهم، وزادَ على حِصّةِ كل منهم كيسين إضافيين وهي تساوي ربع المحصول لهم الثلاثة لقاء تعبهم طوال العام في زراعة المحصول وخدمات الدار. قال أحدهم: الحمد لله إنها حصة مجزية هذا العام. ولعل الله يَمنُّ علينا بمثلها كل عام. وأكملَ الحاج أبو محمد توزيعاته على الراعي والناطور وجميع الطالبين المحتاجين. حتى عابري الطريق أعطاهم بَرَكَةً من بيدره هذا الذي بارك الله له به.

عملَ الجميع اليومَ بطوله في نقل الغلة إلى المخازن؛ لتكون مؤونة لهم وعوناً لكل محتاج وزوادةً للغادي والرائح من الطلابِ والضيوف من أهل قرى الوادي والذين يأوون إلى مضافة الشيخ عندما تنقطع بهم السبل، وتَدْلَهِمُّ الأجواءُ فيجدون الراحة والزاد في هذه المضافة.

هذه قرية من قرى الجولان منطقة الزوية التي تضم العشرات من القرى العامرة شرق بحيرة طبريا على الحدود السورية الفلسطينية، وتَسكُنها العائلات العريقة من العشائر العربية، وفي كل قرية الكثيرُ من المضافات المفتوحة للغادي والرائح أمثال مضافة أبي محمد التي يُقدّم فيها القِرى وحتى الذبائح لمن يؤمُّها فهي في كفر الماوحيتل وجبين وفيق وناب والعال وكفر حارب وخسفين وأبو خيط وشكوم والدير غريز والفريج وصفورية والبطيحة ونقيب والحمة والياقوصة... إنها البلاد التي عدى عليها الزمان واحتلها العدو الصهيوني عام 1967م.

أبو مصطفى اللوباني

منذ عشرات السنين بناها الأهالي ليعلِّموا أبناءهم العلم والمعرفة، إنها مدرسة سكوفيا الابتدائية وحِجارتُها الزرقاء شذَّبَها معماريون مهرة من مدينة صفد المجاورة، وسطحها وسقفها من الباطون المسلح المدعم بحديد من بقايا الخط الحجازي الحديدي، إنها تشرف على فلسطين الحبيبة في الغرب وهي تبدو كأنها صحنٌ مُزيَّن ومرصَّعٌ بالزخارفِ وأجمل الحُلي، خاصةً عندما تَسْطعُ عليها شمس الصباح الربيعية، فترى أمام ناظريك منظراً رائعاً يَبهرك بالجَمال الأخّاذ فهذه البحيرة الهادئة مُتْرَعةٌ بالماء الأزرق الصافي، ومنظرها يريح أعصابك من كلّ هم وغَمّ تبدو من خلفها مدينة طبرية الجميلة ببيوتها البيض المتناثرة على الشاطئ الشرقي للبحيرة، كما أنها تتسلق مساعدةً إلى سفوح الجبال الغربية، منها ما يَلمَعُ على ضوء الشمس وفي كل صباحٍ وكأنها تهدينا التحيات من بريقٍ كَأَنَّهُ إشاراتُ بَرقيةٍ جَميلةٍ،

وعلى يسارك تبدو جبال الجليل العالية وفوقها تَتربَّعُ مدينةُ صفدٍ رافعةً رأسها ولن تُطأطِئَهُ أبداً؛ فهي العالية الأبيّة التي قارعت الغزاة طوالَ عمرها وستبقى حتى تحريرها من دَنس الصهاينة.

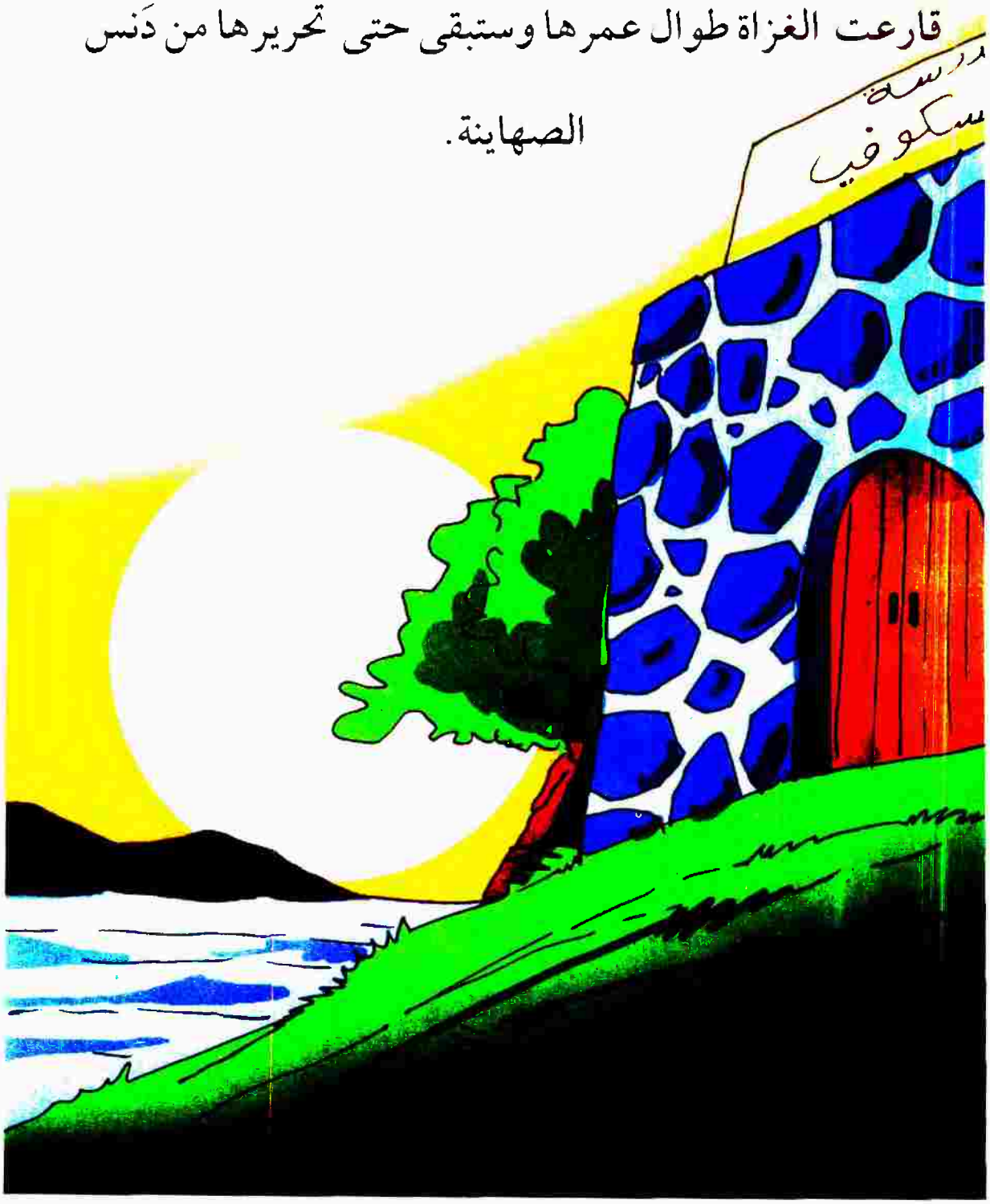

وتنظر عن يسارك لترى مدينة سَمَخ تَضَعُ قَدَمَها في خليج البحيرة الجنوبي، حيث الينابيع الساخنة الكبريتية من حمامات رائعةٍ . أهداها ربُّنا للمؤمنين منذ الأزل، وعندها مَرَّ وأقامَ الأنبياءُ والصالحون وتعمَّدَ في حوضها السيدُ المسيح- عليه السلام - وتلامذتُه وجاء يَذودُ عنها أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وصلاح الدين والظاهر بيبرس وقُطُزُ، والشهداء العرب السابقون واللاحقون الذين نذروا دماءهم فداءً لهذه الأرض الطاهرة.في كلّ يومٍ كُنتُ أرى أبا مصطفى اللوباني يقعدُ على صخرةٍ أمام المدرسة المشرفة على فلسطين، وكان ينظرُ إلى الغرب نحو سهولها، لا يُفارق عينيه منظرها، وعرفت أنه من مدينة لوبيا وهي تبعدُ عن مدينة طبريا غرباً عدة كيلومترات، ولكنها تظهر للعيان حيث يراها الشيخ أبو مصطفى،وكلما رأى أحداً أشارَ إليه بأن تلك بلدته لوبيا وفيها دارُه على رأس التَّلةِ، إنه يراها ويعرف طريقها فيقول:

انظر يا بني إنها داري التي عَمَّرْتُها بنفسي وسط كرمي. إنها بيضاء تبدو على ضوء الشمس المشرقة. أدوارها الثلاثة مفروشة بالسجاد والبسط والأرائك ومفارش الصوف. ثمّ أردف مضافتها قال: كنا نزرع الحنطة ونحصُدُها وندرسها، ونصنع منها الخبزَ الشهيَّ نأكله مع زيت الزيتون الذي نستخرجه بالمعاصر الحجرية، ونقدّمه للضيوف وعابري السبيل. كان في داري مواشٍ كثيرة، نصنَع من حليبها السمن والزبدة والألبان.

كان يقول لمن رآه: انظر يا بنيّ إن الطريق إلى لوبيا يمرُّ من طبريا وبجانب داري. ويَتَنهَّد الشيخ حَسْرَةً على وطنه الذي خَسِرَه واحتلّه الصهاينة. ولا بدَّ أن يعودَ له بهمَّة الشباب العربي وعزيمة المجاهدين الفلسطينيين والعرب.

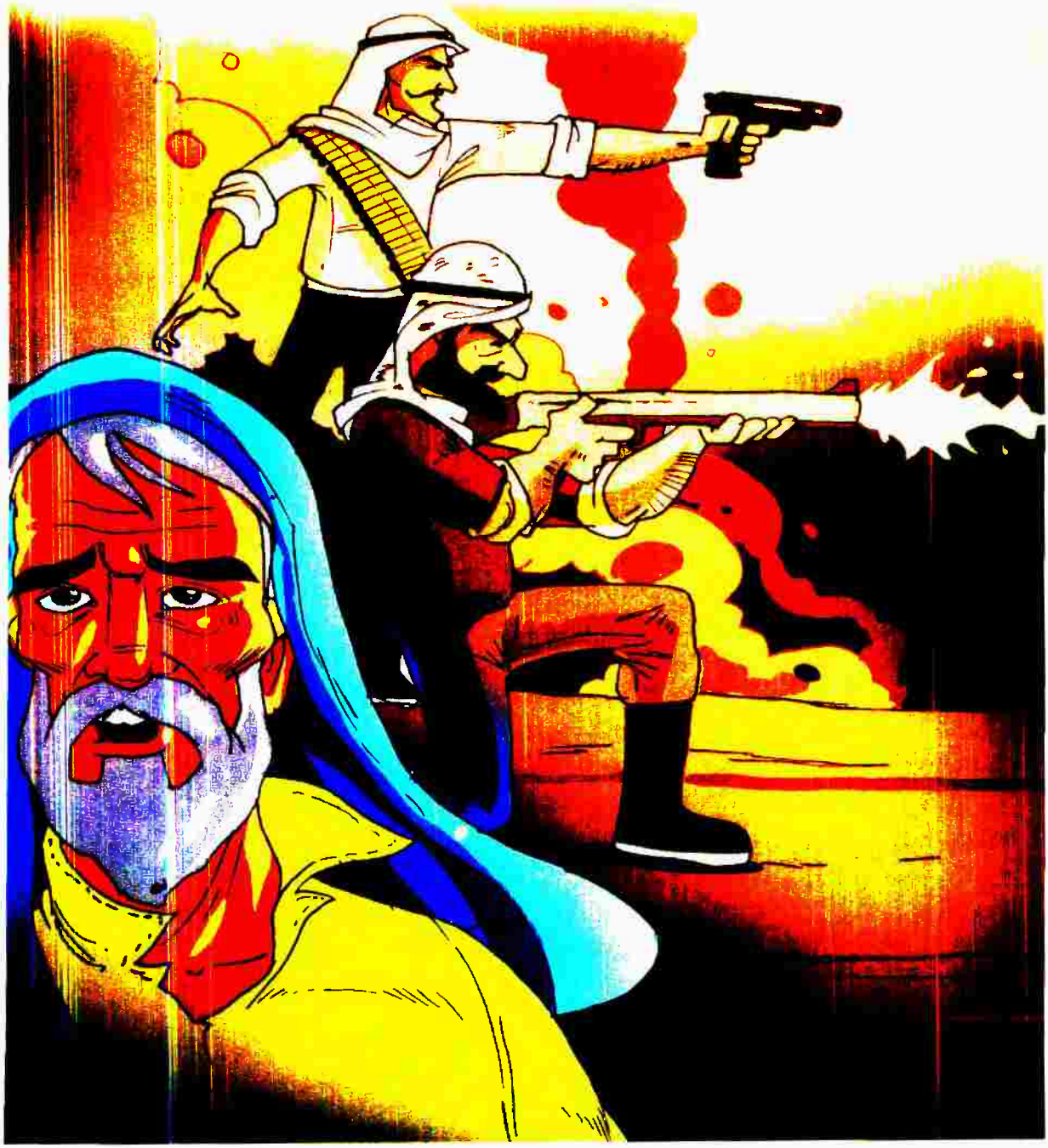

ثم يُرْدف قائلاً: لا تَظُنَّنَ أننا لم ندافع عنها، لقد رُويتْ أرضُ لوبيا كما كلّ فلسطين بدماء شبابنا ورجالنا الأشاوس فدافعوا عنها دفاعَ الأبطال، ظلوا يَرُدّون الأعداء الصهاينة ويقتلونهم أيّاماً بَلْ أشهراً بسلاحهم الفردي القديم الذي اشتروهُ بمالهم وبذخيرةٍ قليلة فاسدة، تجاه عدوٍ أَعْطَتْه القوى الاستعمارية كلَّ أسبابِ الانتصار من سلاح حديث وطيران ودبابات ومدافع... ونحن نوعَدُ بالجيوش العربية التي لم تعطنا غير الوعود، واستشهد مقاتلونا وهم رابطون على سلاحهم ولم يَتَزحزحوا، وكانت مجزرةً حيث قَتَلَ الصهاينةُ الرجُلَ والمرأةَ والطفلَ والعجوز وأحرقوا الأرزاق والدور، وهم يريدون أن يخاف أهلُ فلسطين ويتركوها لهم؛ إنها سياستهم يريدونها خاليةً من السكان، إنهم مجرمون تقودهم عصاباتٌ منظمةٌ مثل شنيرن والأرغون والهاغانا.

العريف أبو حسان

وظهر على سطح المدرسة التي تَتَرَبَّعُ على تلةٍ تشرف على بحيرة طبريا، كانت مبنية من الحجارة الزرقاء، ومسلحة بالباطون المرتكز على حديدٍ ثخينٍ مأخوذٍ من سكك الخط الحديدي الحجازي المخرَّب منذ الثورة العربية،

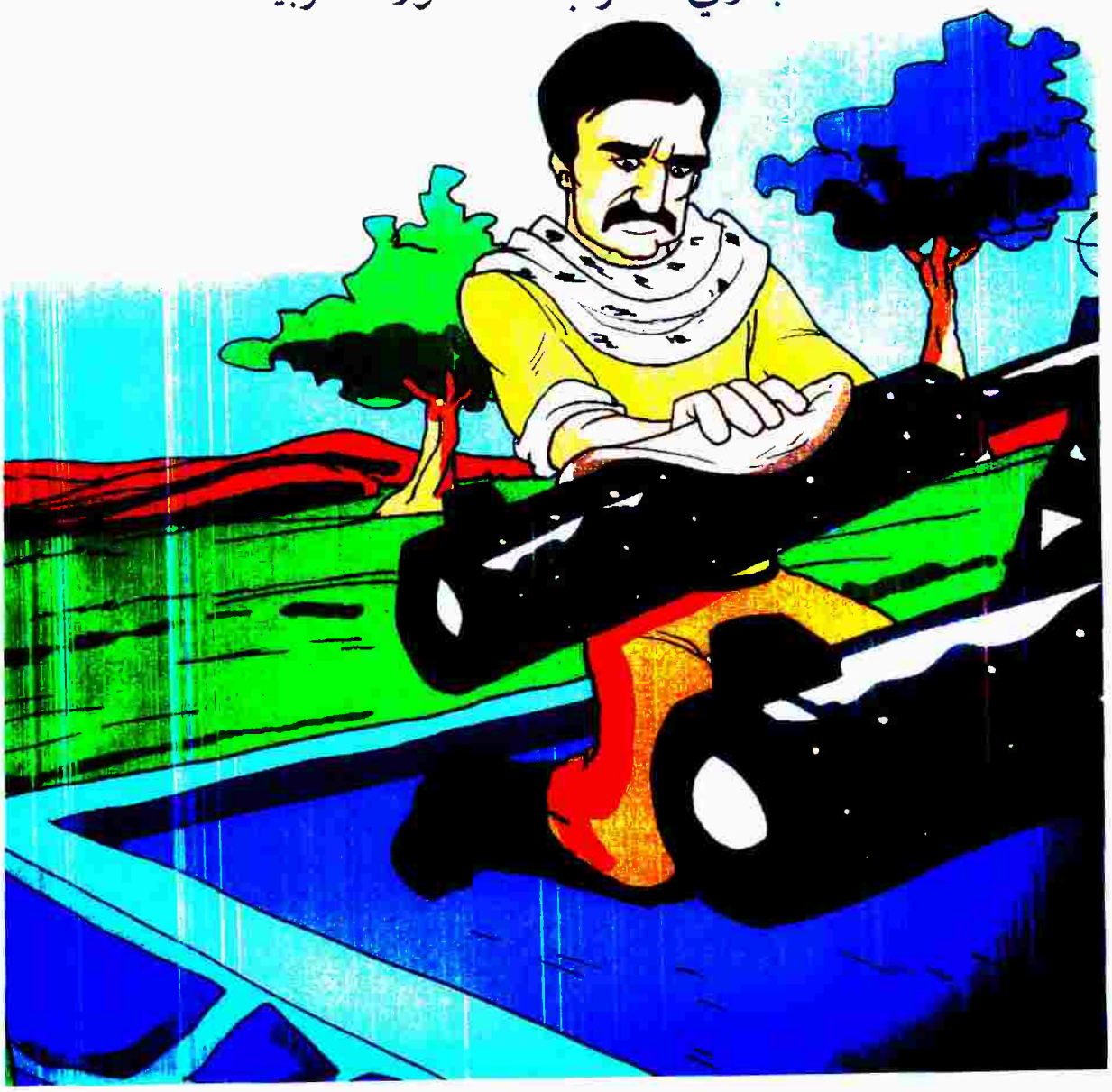

وأبو حسان قد نصَبَ على ظهرها الرشاش المضاد للطائرات وهو يُصاحبه منذ أيام وسنين يَضُمُّه ويحفظه ويعتني به، يمسحُ قِطعَهُ وسَبَطانته ويُزيّتُه بزيت السلاح ضد الصَّدأ، وكان يحيطه بمربطٍ من أكياس الرمل وفي داخلها صناديق الذخيرة يحفظها ويَصُفُّها في شريطٍ يدخله في صندوق موصولٍ بالرشاش، ومعه مُذَخّرٌ يساعدُهُ في المحافظة على سلاحِه جاهزاً للاستعمال في أيّ لحظة.

ظهرت الطائرةُ المعاديةُ قادمةً من فوق البحيرة تتهادى مسرعة وغير مُرتفعة عن سطح الماء أو الأرض حتى لا يراها النَّاس، وبذلك تفاجِئهم وتوقع فيهم أكبرَ الضَّحايا والخراب، الاختباءِ منها سريعاً، فتصيدهم بقنابلها ورصاص رَشاشها.أشارَ جنديُّ المرصد لأبي حسان، أنه قد رأى الطائرة القادمة وهي تقترب منهم، فأسرع العريف أبو حسان واستعدَّ بوضعيّةِ القتال وتهيَّأ لِيَصيدَها ويَرْشُقَها في مَقْتَلها رشقاتٍ من رشاشِهِ العتيد الذي يثقُ به وأنه لا يخطئُ هَدَفه،

رأى العريف الطائرة قادمةً كالمارد الهادر، إن الأهالي في الجبهة يسمونها ((أم كامل)) تظهر عليهم تروّعهم تفجّر البيوت والمحالّ تحرق المزارعَ والبيادِرَ والحقول تقتلُ وتجرحُ وترهب، فرح أبو حسان بملاقاتها وهو يُريد أن يُخَلّصَ الناس من أذاها ويَنْتَقِمَ من طياريها المجرمين الحاقدين على الإنسانية والعرب، وأصبحت الطائرة على مرمى نيران رشاشه، فَصَوَّبَ ورَكَّزَ وأطلق رشقات الرصاص المتفجّر والملتهب نحوها، فتتالت الانفجارات في جسمها وهي تُدَوِّي كالرعد وتضيء كالبرق، وهاهي واحدةٌ منها تدخل مخزن الوقود فيلتهبُ وتشتعلُ فيها النيران ويتصاعدُ فيها الدخان الأبيض، فلم يقدر الطيارُ أن يفعل شيئاً إلا الهرب والعودة إلى فلسطين المحتلة لعلّه يقدرُ على النجاة بنفسه وبها، وهكذا انفجرت فوق ماء البحيرة وتطايرَ حُطامُها وسارعت زوارقُ الأعداء إليها لإنقاذ الطيارين كان أبو مصطفى يَرقبُ المشهدَ ويدعو ربَه بالانتقام من الصهاينة

وأن تحترق هذه الطائرة على يد المقاتل العتيد أبي حسان، ولما رآها تهوي في مياه البحيرةِ من طلقات الرشاش كبَّرَ صائحاً: سَلِمتْ يَداك أيها العريف إنك البطلُ الذي قضى على هذه المدمِّرةِ للحياة والأرزاق في هذه الجبهة.

أسرعَ الناس والجنودُ والضباطُ إلى حيث الرامي الماهر أبي حسان وشكروه وقبّلوه ورَفعوه فوق الأكُفّ نقديراً لبطولته. وفي قيادة الجبهة كَرَّموه وَرَقّوهُ إلى رتبة رقيب، ووضعوا له الأوسمة والنياشين. ولكن أبا حسان لم يشأ أن يترك رَشّاشَهُ ومركزه وموقعه؛ يريد تصيّدَ المزيد من الطائرات المعادية.

الجـــدَّة الطبرانية

كانت عَيْناها مُتسَمِّرَةً نحو الغرب باتجاهِ مدينةِ طبرية. لا تغادرُها لحظةً طوالَ النهار خاصة في الصباح ومع خيوط الشمس الأولى. حيث تظهرُ دارُها التي غادرتها مُرغمةً منذ أيام تاركةً قصراً مملوء بالخير والخيرات والحركة والحياة، ويَعُجُّ بالرجال والأولاد والأطفال والمراكب البَرية والبحرية، إنها الجدّةُ التي حَمَلها أبناؤها وأحفادها إلى دارنا في الأراضي السورية قبالة هذه المدينة ومعها النساءُ والأطفال؛ خوفاً عليهم من وحشية الصهاينة المجرمين وعصاباتهم المحترفة. قالت الجدة: دَخلَ الصهاينةُ طبريا وقَطَّعوا في سكانها كبيراً وصغيراً ورجلاً وامْرأة أو طفلاً، دمروا المساجد والبيوت وأحرقوا المتاجر ونهبوا محتوياتها، وقاتل أهلُها دفاعاً عنها بكلّ ما يملكون حتى آخر رصاصة وهم ينتظرون الجيوش العربية التي كانت تنظر إليهم غير بعيدة عنهم؛ لتحميهم كما وعدتهم هذه الدول، ثم طردوا من بقي من أهلها إلى البلاد العربية المجاورة.

حضر أولادها من مدينة درعا لأخذها معهم بعد أن استقروا هناك وأمنوا السكن والعمل؛ حيث إنهم يحملون الشهادات العلمية ويتقنون اللغة الإنكليزية.

رفضت الأم الطبرانية المغادرة معهم، وآثرت أن تبقى تملأ عينيها برؤية مدينتها الغالية وبحيرتها الرائعة ودارها المتألقة وهي تقول: سوف أبقى أمتعُ ناظِرَيَّ بها حتى أموت.

العمة أم صـــالح

في ليلة شباطية مدلهمة ممطرة، كانت الريح تهزُّ الأشجار وتحملُ الأمطار، فتنقرُ على أبواب البيوت وكأنها ضيف ثقيلُ الظل في ليلٍ معتم باردٍ، كانت الكلاب في الخارج تنبحُ على أطراف الدار المترامية وكأنها تنذر الذئاب بوجودها، وأنها لن تسمح لأي منها بالدخول والاعتداء على حيواناتها. كانت السهرة عامرةً وجدَّتي توقدُ الموقد بالحطب اليابس وبقايا الدريس المصنوع من تِفْلِ الزيتون، كانت ناراً مرغوبة في ليل باردٍ، قالت الجدة لأمّ صالح الوافدة إلى دارنا مع أولادها من قرية السَّمرةِ على الطرفِ الشرقيِّ من بحيرة طبرية، وقد طردتهم العصابات المجرمة الصهيونية من الهاكانا والأرغون، بعد أن دمرت بيوتهم وقتلت شبابهم بكل حقدٍ بعد أن استنفذوا الذخائر أثناء الدفاع عن قريتهم وعائلاتهم وأرضهم، وكانت الدموعُ تملأُ عينيها والآهاتُ تصدرُ عنها مبيّنةً مدى تأثُّرها على فراق قريتها،

ومسقط رؤوس أبنائها الذين أصبحوا بغير ملاذٍ أو مأوى ويدعونهم ((اللاجئين)). قالت لها جدتي: إن هذه الدار هي دارك ودارنا جميعاً تكفينا وتكفيكم ورزقها لنا ولكم، فكم لكم عندنا من جميلٍ وفضائلَ عندما كنا نذهب إلى فلسطين ونضيف في دياركم، خاصة في مثل هذه الأيام الباردة حيث تستقبلونا على ضفة البحيرة الدافئة في الغور الجميل نحن وحَيَواناتنا من الغنم والماعز،

وكنتم لا تبخلون علينا بالخيرات واللوازم وها نحن قد صِرنا نرد لكم الجميل وهو واجبنا؛ لأننا أخوة وأقارب في الدين والعروبة، فأنتم في دياركم حتى يُقَدّرَ الله وتعودون لبلدكم الجميل. قَلِقَتْ أم صالح على زوجها أبي صالح الذي خَرَجَ منذ أسبوع ولم يَعُدْ، وهي لا تدري أين وجِهتُـهُ؟ وماذا يفعلُ في هذه الغيبة؟ قالت لها الجدَّةُ: لعلهُ يسعى إلى تأمين مسكنٍ مناسب لكم، ولكنها بقيَت مشغولةَ البال عليه ولم تنفكَّ عن الدعاء له بالسَّلامة. كان أبو صالح قد تذكر أن زوجته ذكرت له أنها قد خَبَّأت عُرجَتَها في ركن من أركان الدَّار عندما كان الأعداءُ ينهبون البيوت والأموال، فقرَّرَ وهو في حيرةٍ من أمره ولا يملكُ نقوداً ليصرفَها على عائلته وأولاده، أن يعودَ إلى بلده وداره؛ ليحضرها تحت جُنح الظلام وليس له خيار آخر؛ فهي بما فيها من ليراتِ الذهبِ تُعينهم على هذه الأيام الصعبةِ ولو إلى حين... وكان والدي يبحث عنه في القرى المجاورة وتجمعات اللاجئين في الوادي القريب،

وفي ليلةٍ مظلمةٍ كان أبو صالح يتسلَّلُ إلى قريته المحتلةِ ودخل داره، فوجَدَ فيها مقراً لقوات الاحتلال، واستغلوا الطابق العلوي (العلية) لرصد حركات التنقلات البرية والبحرية، وتربَّص حتى وجَدَ الحراس قد ناموا، وأسرعَ إلى مكان الحلي التي خبأتها أم صالح وبحث فوجدها في صُرةٍ، أخذها وتراجع بكل حذرٍ وخرج إلى الحقل المجاور؛ حيث أصبح أكثر أماناً على نفسه وما يحملُ من مال، وهناك وجدَ كلبه الأمين يرافقه وهو يتعقبه ويركضُ أمامه وكأنه يريد أن يدُلَّهُ على شيءٍ هام، وتابعه الرجُلُ بعد أن فَرِحَ بكلبهِ واطمَأنَّ لوجودِه، وهناك وجَد فرسهُ تنتظرُهُ، ففرحت وركضت ترحبُ به وكأنها تُسِرُّ بعتبها عليه، كيف يتركها وهي ترافقهُ طوال حياتِه، فركبها وسار قاطعاً الحدود واصلاً إلى أهله وأولاده سالماً، ومعه ما يستطيعُ أن يعيش به من المال ريثما يَجِدُ عملاً مناسباً له.فَرِحَ الجميعُ بعودته وسلامتِه واطمأنت زوجته وأولاده، وكان السرور يدخل إليهم بعد همٍّ وغم.

أبو فتحي التاجر

دخل التاجرُ أبو فتحي مضافةَ المختار في قرية سكوفيا الحدودية، فاستقبلهُ الرجالُ بالترحاب والحبورِ مُهنّئيه على سلامته بعد احتلال الصهاينة مدينة سمخ في فلسطين على ضفة البحيرة الجنوبي، حيث كان له متجرٌ مملوءٌ بالبضائع، وكان يتعاملُ مع سكان الحدود في سورية، والذين يَحْضُرون إليه عبرَ الحدود ويأخذون ما يحتاجون من المصنوعات والمنسوجات والغذائيات، خاصة أنه يمُدُّهم بها كدينٍ على طُلوعِ الموسم.حَمِدَ أبو فتحي ربه على نجاته من الكارثة التي حَلَّت بالمدينة في سمخ، وقصَّ على الحاضرين ما جرى فيها من مجازر ارتكبها الصهاينة من قتلٍ للأهالي وهدمٍ للبيوت بالدبابات التي زوّدهم بها جيشُ الإنكليز المناصر لهم.

وسقط الشهداء من مقاتلين وثوار وهم يدافعون عن المدينة الحبيبة، ولم يتركوا لأحدٍ فرصةً لأخذ حاجة أو أموال وبضائع،

... والأردنية

... بكل ما يملكون من قوة

... سوف تحصل على ديونك

... يضيع عليك قرش. فكن مُطمئنًا واستريح

هذه الليلة، وأنت في ضيافتنا ولك علينا

حق الضيافة. وكم لك من أياد

وأفضال على الجميع،

وسوف نعوض عليك

بعض خسارتك.

أبو سليم الصفدي

رجلٌ قوي مفتولُ العضلاتِ، كان يلفُّ على رأسه ويربطُ في وسطِه يشدُّهُ بزنار سميك، عُدَّتُهُ مَهَدَّةٌ ثقيلةٌ ومطْرقةٌ وإزميل، يتعاملُ بها مع الحجارة التي عايشها منذ عشرات السنين، فهو يتعاطى معها أكثر من البشر رغم صلابتها وقساوتها ولكنها طيِّعَةٌ معه، يتحرَّفُ لها من كل جانبٍ فتراها بنقْرةٍ أو ضربةٍ تنفتحُ مَكاسرها وتتشذَّبُ مطارفُها، إنه المعماريُّ والحَجّارُ الصّفديُّ الذي عمَّرَ أغلبَ بيوت قرية سكوفيا على الحدود السورية الفلسطينية الجنوبية!كانت أحجارُ البازلت السوداء ذخيرته في البناء، يَنْتَقيها من الجبال والوديان يُحْضُرها على ظهور البغال والحمير حيث التجمُّعُ السكاني فيها، وقد انتشرت على الأطراف حيث الحقول والكروم المزروعة بالزيتون والعنب والتين والرمانِ، وكلُّ عائلةٍ في القرية كَبُرَتْ وصارتْ عائلتين أو ثلاثة،

ويرغبون بالاستقلال والعيش في أحضان الطبيعة. فكَبُرَتْ هذه القريةُ مثل بقية البلدان، والحياةُ الهَنيئة تَلُفُّ هذه العائلات. الأبناءُ يطيعون آباءهم ويحبونَهم، وتسري بينهم العلاقات الجميلة والمودة الحسنة.

ولا يُنَغّصُ حياتهم إلّا تعديات الصهاينة المعتدين عبرَ الحدود الفلسطينية، فطائراتهم تُغيرُ على القرى العربيّة في سورية، ومدافعهم تقصف البيوت والسكان وتوقع بينهم كلّ يوم الإصابات والموت الزُّؤام، إلّا أن جيشنا الباسل يَرُدُّ عليهم بضربات موجعةٍ ويَدكُّ حُصونهم ومرابطَ مدفعيتهم فيُحَطّمُها ويكبدُهم خسائر فادحة.

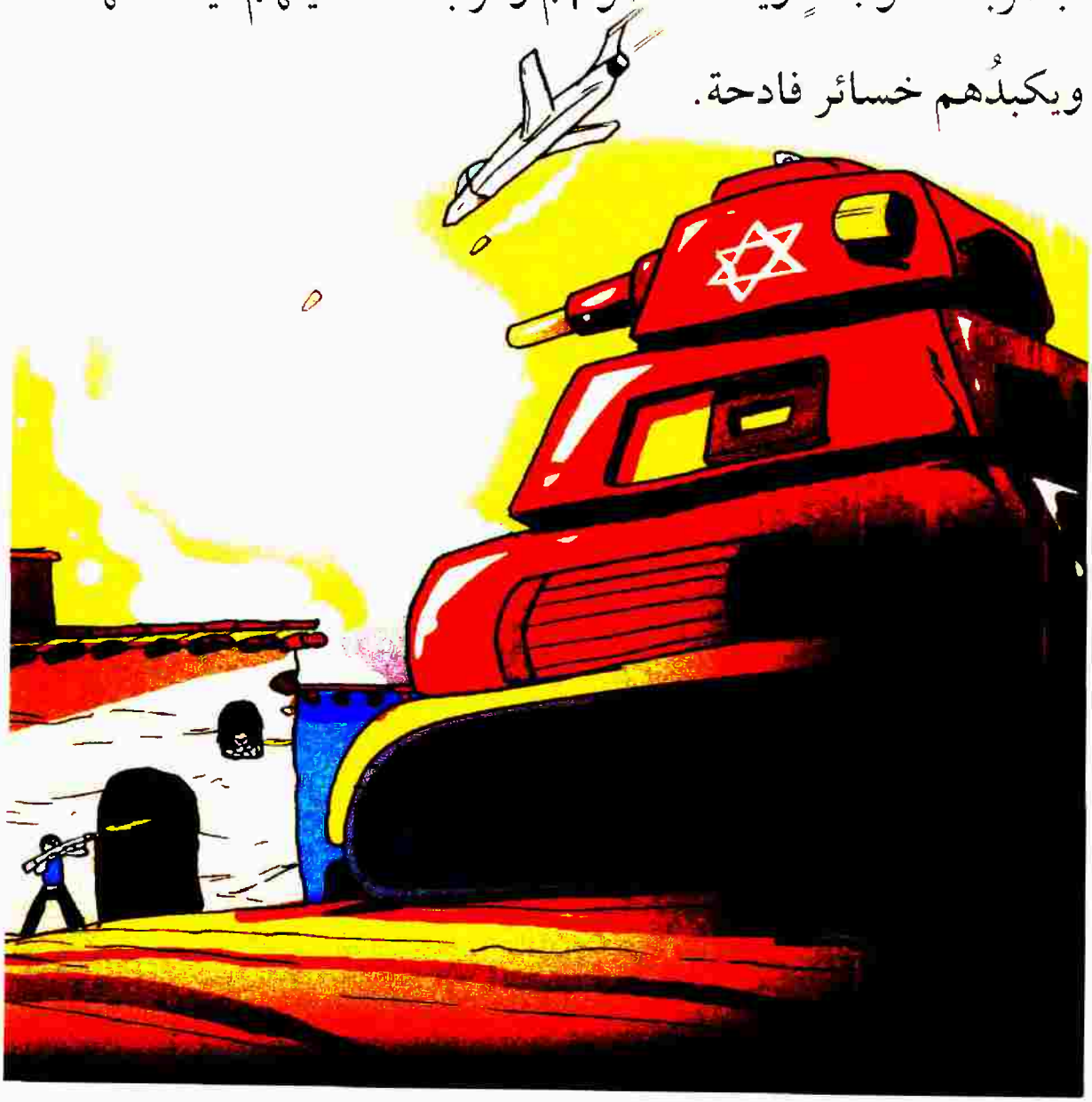

كان أبو سليم يَصْعَدُ إلى السَّقَالةِ الخشبيَّةِ، ليضعَ الحجارة فوق بعضها ويَصُفَّها كالبنيان المرصوص، أو يحْنيها ليصنع قنطرَةً يتكئُ عليها سطحُ البيت، فهو ماهرٌ في صنعته التي اكتسبها عن آبائه وجدوده! لكنه كلما ارتفع أكثر نظر على شماله فتظهَرُ له بلدتُهُ فوق جبال صفد، و كأنها تناديه وتلَوّحُ له بيديها وتبرق بعيونها، وتَهُبُّ عليه رياحها المنعشة فلا يستطيعُ حراكاً، فيتسمَّرُ في مكانِه وتغمُر عينيه الدموعُ وهو يقولُ:

يا ديرتي مالك علينا لوم

لا تعتبي لومك على من خان

والله ما عشنا بلاك دوم

والروح نفديك في كل يوم

لا راحةً فينا ما دام فيك القوم

وسيوفنا تشرَب دم الصّهيون

ونحررك يا دارنا لا بد من شالوم

يومٌ عزيزٌ فيه نعود للأوطان

فَيُنْصِتُ كلُّ من حوله ويتركونه في تأوُّهاتِه يُنفِّسُ همومَه وحُزنه على فَقْدِ مسقطِ رأسه وأوطانه، قال: إنها صفدٌ العديّة، وهناك يظهر الحيُّ الشمالي الذي عمَّرتُ جزءاً منه، وأصبح طوابق وعلالَي ومضافات ومصايف، حيث يتجمَّعُ الناس في الصباحات النديَّة، ويتروَّقون الخبزَ الساخن المعجون بالسمن البلدي والزيت والزعتر البري! كانت حياتنا مملوءةً بالخير والبهجة والسعادة؛ فمنتجات الحيوانات التي تردُ إلى صفد من أصحاب القطعان في السفوح المنحدرة غرباً وشرقاً إنها المرابع التي تعطي أُكُلها كلَّ حين.

كان يعملُ دون كَلَلٍ أو ملل، ولا يتكلَّمُ إلا نادراً، يضع الحجر فوق الحجر ويبني الجدران والقناطر ويرفعُ (الحنثَ) وهو جِسْر حجريٌّ فوق الأبواب والنوافذ، يعمّرُ العلالي ويأكلُ مما يحضُره له أصحابُ الدار، لا يتأفَّفُ أو يتبرَّم فقد اكتوى بنار النكبة!قالها مرةً لوالدي وهو يبني في دارنا: لقد ذَهَبَتْ أم سليم في اتجاهٍ وأنا باتجاهٍ آخر، فهي في لبنان عند أختها مع أولادها وأنا هنا عند أختي المتزوجة في قريتكم.

قال أبو سليم: والله لم نكن جبناء ولا متخاذلين في الدفاع عن بلدنا، ولكنها المؤامرة والتفرقة وعدم التعاون فيما بين العرب و لمقاتلين. لقد جاءنا المنادي يعلنُ: أن رَحِّلوُا زوجاتكم وبناتكم وأطفالكم، فالعدو يريدُ بكم شراً، فحافظوا على أعْراضِكم وأرواح أبنائكم، وأسرعَ الناس يرسلون النساء والعائلات إلى سورية ولبنان خوفاً عليهم، وأصبح الرجالُ وحدهم يحملون السلاح يدافعون عن مدينتهم تجاه الهجمات الشرسة من قبل عصابات العدو، مستخدمين أقوى المعدات الثقيلة من دبابات ومدافع وطائرات، وقد تصدى لهم المجاهدون بالبنادق والقنابل اليدوية، وفجّروا الكثير منها بهجوماتهم الفدائية، وَصَدُّوا العديد من هذه الحملات الصهيونية، ومع نقص الذخيرة بين يديهم، وعدم وصول المعونات من الدول العربية، فقد تكالب الغزاة عليهم ودخلوا المدينة على جُثثِ المقاتلين الذين استشهدوا وقدَّموا أرواحهم على مذبح الوطن.

قال: إنهم جبناء لا يحاربون إلا خلف المعدات الحربية وقوة السلاح، وكثافة النيران خاصة الطائرات الحربية وهي تقذف النابال المحرق المحرَّم دولياً، وهذا العالم الغربي يدعمهم ويمدهم بكل أسباب القوة والعتاد العسكري خاصة بريطانيا المستعمرة لوطننا، حيث تركتْ لهم الأسلحة الحربية التي كانت معهم عند انسحابها من فلسطين في عام النكبة 1948م، قال له والدي: إن لك فيها قصصاً وحكايات ونريد سماعها منك؟قال: كنت في جنوبي صفد، في إحدى المحاجر المتطرفة ومعي كلبي والبغل الذي أحملُ عليه الحجارة بعد أن أشَذّبُها وأحَضُرها للبناء.فشاهدتُ رَجلين يقتربان مني وقد أَفْلَتَ أحدهم البغلَ ورمى الآخرُ الحجارة على كلبي الذي كان ينبحُهما، وكانا يشهران الأسلحة على الكلب ويطلقان عليه النار فلا يصيبانه، وعندما وصلا إليَّ طلبا مني الاستدارة خلفاً والجُثوَّ على الأرض ففعلتُ، وتقدما مني وحاولا تقييدي كلٌّ في ناحيةٍ عن يساري ويميني!

وبحركةٍ سريعةٍ كان الاثنان بين يديَّ كلٌّ تحت إحدى ساعدي.

أحكُمُهُما كالعصفورين في قوس المصيدة!

وَسِرْتُ بهما أقودُهما أسيرين والكلبُ يُلاحقهما ويعضهما حتى

وصلت بهما ساحة صفد

والأولاد يتبعوني ويقطرونها

بالحجارة.

حتى وصلَ أعضاءٌ من قيادة المقاومة فاستلموا هذين المعتدين الأسيرين. وتابع أبو سليم: إنهم جبناء يخافون المواجهة!

فَمَرَّةً وجدنا أحدهم وسلاحه على جنبه، وقد افترسه الضبع، والطَّلقات في بيت النار، إنها صفدي، إنها بلدي وروحي وأنفاسي! ذهبت لغير أهلها.

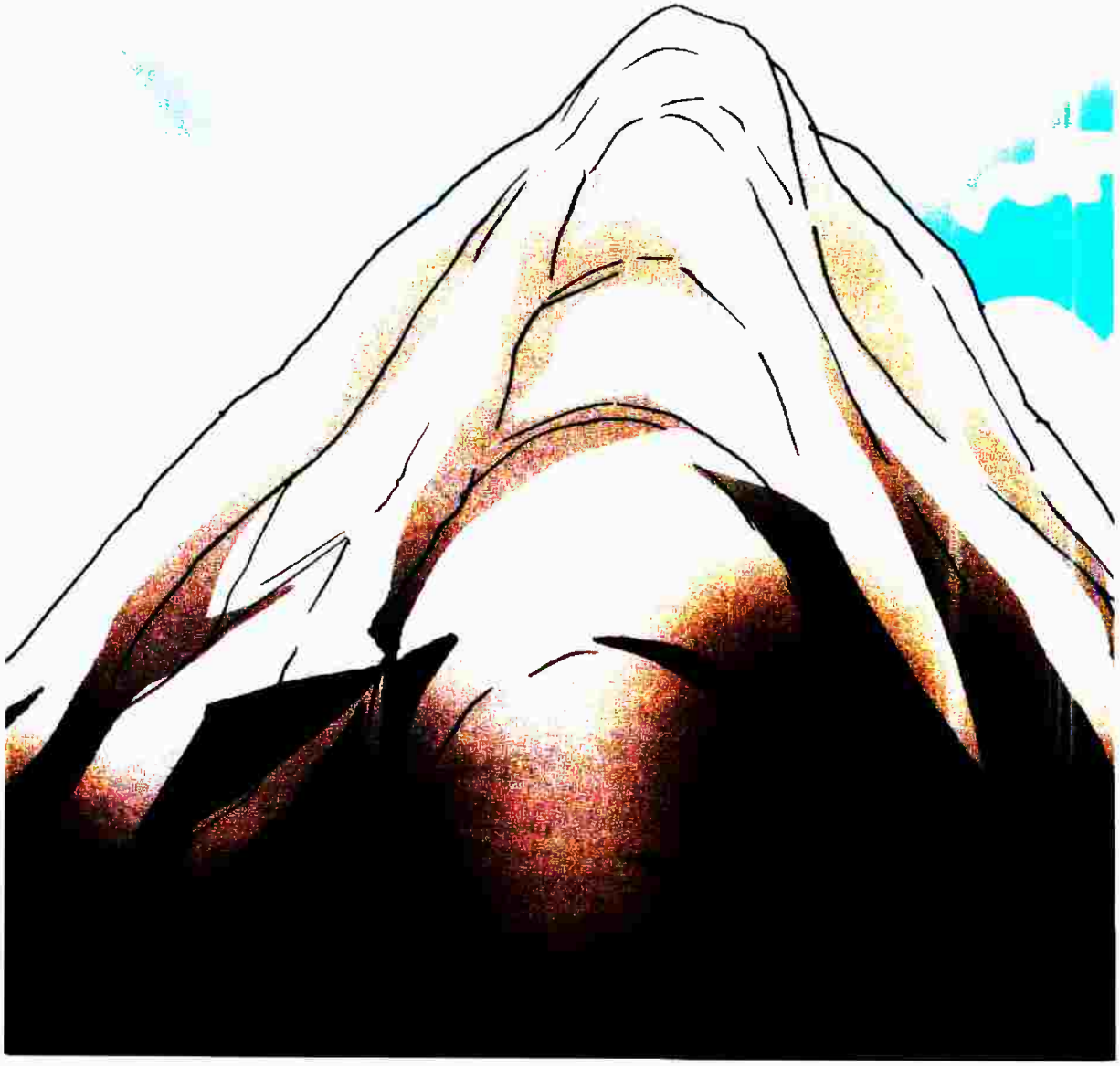

طابَ الموتُ يا عرب!

النهرُ رقراقٌ..... صافٍ، خَريرهُ الرَّنّانُ يُطْرِبُكَ، زرقَةُ مائِهِ تبهرُ ناظريك.... أسماكُهُ الزاهية تَسحرُ العيون ..... كلُّ قطرَةِ ماءٍ تنحدرُ فيه خرجت من بطن ذلك الجبل العالي المكسوّ ثوباً أبيض من ثلوجٍ متراكمةٍ عذبة المذاق، إنه جبل الشيخ منذُ الأزل.

ما أجملَ الإقامة في أحضان الطبيعة وخمائلها، والنسائم تحملُ عبق الصباحِ من الزهور الفواحة، ومن حولك الفراشات بألوانها الزاهية، والبلابلُ تُغَرِّدُ وهي تنتقلُ من غصنٍ لآخر لترضي إناثها. وهي تجني الفواكه لتطعم فراخها. وعلى السّفح يبدو ديك الحجل يزقزقُ وهو يقودُ سرباً من أقرانِه، وأمهاتٌ تسيرُ وراءهن صيصانٌ لا تكادُ تراها لسرعة اختفائها وحركاتها. كان جابر في بستانه بغور الأردن على حَفّةِ نهرٍ مُقَدَّسٍ عندما تعمَّدَ به السيد المسيح -عليه السلام- وغسل جسدهُ الطاهر في مياهه العذبة وشربَ وارتوى من مياهه لتكون الماء المبارك في الأرض المباركة.

وصدى صوت جابر يتردَّدُ في جنباتِ الوادي إنه يتجَّولُ بين شجيراته وغرْساته وخلايا نحلاتِه؛ يتفقَّدُها ويصلح أحوالها ويسقيها من مياه النهر المتدفقة في مجرى النهر، ويَقطف الخضروات الناضجة، فهي تذهب للسوق باكراً قبل مثيلاتها في الحقول المرتفعة بشهرين تقريباً ويقالُ لها (البواكير) فيكون سعرها أغلى ونوعيتها أعلى جودة وطعماً من تلك التي تزرعُ تحت البيوت المدفَّأة. رفع جابر رأسه وحَدّقَ حوله، كان ينادي ابنه رافع، لكنه لم يَرُدَّ عليه! لقد ابتعد الولد عن والده، فنهض جابر متوثباً، وعاود الصّياح ولم يسمع جواباً من ابنه الصغير، وسارع الخطا والقلقُ يظهرُ على تصُّرفاته خوفاً على ولده! خاصةً أن المنطقة مملوءةٌ بالسُّيّاحِ، ومنهم العديد من الصهاينة الذين يتستَّرون باسم السياحة ويريدون الأذى بهذه الأرض وسكانها، وهم يكرهون العرب وأبناءهم، وكم من جرائم ارتكبت من قبلهم على حقوق السكان العرب وأعراضهم وحياتهم!

وفجأة شاهد الأبُ مجموعةً من الصهاينة بمناظر مخلَّة للآداب، شباباً وفتياتٍ، يرتدون القبعات وشعورهم منثورة، وثيابهم متهدِّلة، ويترنحون كمن أصابهم مسٌّ من الجنون، بناتٌ خليعاتٌ، وصدورهن مفتوحة، كنَّ مخمورات يتمايلن بين مجموعاتٍ يرددون بالعبرية ترانيم غير مفهومة!

كانوا يغيظون السكان الذين يراقبونهم بحذرٍ، وهم يمسكون في حلقاتٍ للرقصِ والغناء وعروضٍ مُزْريةٍ تُظهِرُ مفاتن الفتياتِ، إنهم يريدون إغراء الشباب العرب وإفسادهم ونشر الرّذيلة بينهم، حتى إنهم يحضرون المخدرات لإغراء الجيل العربي على التعاطي بها. أما السكان فكانوا حذرين منهم لا يتعاملون معهم، بل ويحتقرونهم، ويعرفون أهدافهم وَكُرْهَهُم للناس وأنهم لا يتورعون عن إيقاع الأذى بهم وبكل عربيٍّ. في هذا البلدِ أو أي بلدٍ آخر كما يحدثُ في لبنان وفلسطين وسوريا ومصر،

فإن إجرامهم ظهر جلياً في المجازر التي ارتكبوها في حروب أعوام 1948، 1956 و1967م في قبية ونحالين ودير ياسين، وقتل الأسرى المصريين في سيناء بكل برودة أعصاب وحقدٍ توارثوه من غُلاةِ اليهود العُنْصريين. وجدَ جابر ابنه رافعاً وسط الناس الذين يتفرجون على رَقصاتِ الصهاينة وهم يعرضون أجسادَ النسوةِ بينهم لإغراء المجتمعين وإفسادِ أفكارهم، ولكن الناس قد عرفوا أهدافهم وانصرفوا عنهم إلى أعمالهم.

أخذَ الأب ابنه إلى بستانه وراح يلومُ زوجته كيف تتركه دون مراقبة؟ وأنّه يخاف عليه منهم، فهم لا يتورعون عن فعل أي جُرمٍ يقع بنا. وقد اختفى بعض الأطفالِ في القرى العربية المجاورة.

قالت أم رافع: ماذا يريدون منا! لقد احتلوا أرضنا وطردونا منها منذ أكثر من أربعة عقود، وشَّردونا وقتلوا الرجالَ والأطفال ودَمَّروا حياتنا، فكيف يتركونهم يدخلون لهذا الوادي فهم أعداؤنا؟!

ألا تتذكر يوم دخلوا القدس وداسوا في بيت المقدس، ونبشوا القبور واستباحوا الحرمات ونهبوا وقتلوا وشَّردوا وكانت نكسة عام 1967م، وتابعت كلامها وزوجها أبو رافع يستمع إليها ولا ينْبسُ ببنتِ شفة، والغضب يأخذُ منه مأخذاً عظيماً، قالت: ألم تتذكر يوم قتلوا ابن عمك شمس الدين؟ وهو على بيدره، وحرقوا غلاله، وأطلقوا النار على حصانه وثيرانه، وكيف بقروا بطن خالتي ونكَّلوا بها! وكانت تبكي من شدَّةِ تأثرِها بتلك الأحداث، وكيف قتلوا أخاها صالحاً على مشارف بيت لحم؟ وهو عائدٌ بالهدايا بعد غيـــاب طـويـل فـي بـلاد الغـربة وأُمّهُ تنتظرُه.

قال الزوج: كفّي عن العَويل! وكفانا هماً اليوم رُؤية هؤلاء الأوغاد بين ظهرانينا، فكيف ننسى جرائمهم ونسمحُ لهم بالدخول إلى ديارنا وأرضنا؟!قدَّمت الزّوجةُ طبقَ الطعام الذي أَحضرته لتناول الفطور، فإن زوجها جائعٌ وتَعِبٌ، وعليها أن تُهيئَ له بعض الراحةِ.

وضع الرجلُ ابنه إلى جانبه، وبدأ يأكُلُ من الزاد الساخن الذي جلبته له زوجته، فطائرُ وزبدة وأجبان وزيت وزيتون.....وذكر رَبَّهُ الذي أعطاهُ هذه النعم، وعلَّمَ ابنه ألا يأكلَ قبل أن يسمي باسم الله الرحمن الرحيم، وكانت الزوجة تصب له الشاي الساخن يرشُفُه مع اللُّقَم المغْمُوسة بالزيت والزعتر.....وبعدَ أن شبعَ واسترخى بين الخمائل وزقزقات العصافير وخرير المياه الجارية، وهو يسمعُ حدَ ءَ الرُّعاةِ في الشِّعابِ المجاوِرَةِ، وغِناءَ الفتيات اللواتي يَبْحثن عن النباتات والأعشاب الطبية مثل الزعتر والبابونج والعكوب والخبيزة والشَّمرا و.....

تَمَدَّدَ الرجلُ التَّعِبُ فوق بساطٍ ممدودٍ على العشب، وراحَ يغُطُّ بنومٍ عميقٍ، لقد أخَذَ منه التعبُ مأخذاً كبيراً، فهو مستيقظ منذ صلاةِ الفجر، عندما أحضر بقراته لتأكُلَ حشائش الصباح المغَسَّل بالندى وأغلبُه من النَّفْلةِ اللذيذة التي لم يمسَسْهَا أحدٌ.

شمَّرت أم رافعٍ عن ساعديها وراحت تعين زوجها في أعماله فتسقي لبندورة والباذنجان والفليفلة، وتُعَشِّبُ النبّاتَ الضارَّ من بينها، وتحْرصُ على زوجها أن يأخذ قسطاً وافراً من الرَّاحة، وتُوَفِّرُ عليه مشواراً من العمل الزراعي الشاق.

وسَقتْ الغِراسَ بعد أن كانت عطشى وارتوت الأشجار بعد جفافٍ في وادٍ حارٍ كثير التبَخُّر، ورفعتْ الفاصوليا أعناقها فرحة بالمياه. تذكَّرَتْ الأمُّ ابنها الصغير، ونادت عليه فلم تجدْهُ في البستان أو هو قريب منها، وركضت في كل اتجاه، ومع ذلك فلا يجيبها! ولكنها لم تشأ إيقاظ زوجها،

كونه متعباً ولديها أملٌ أن تجده يجري وراء الفراشات في إحدى أركان البُستان، فإذا به يتلهّى مع اثنين من الصهاينة!... وهما يغريان بإعطائه ألعاباً وحلوى كي يَتْبَعَهُم، ولهم في ذلك مآربُ وأهدافٌ يضمرونها ولا تُسِرُّ أحداً، ركضت لتُخَلِّصَهُ من بين أيديهم، وهي المرأة القوية ذات القوام العربي والمنظر الجذاب والعيون الساحرة، نادَته وركضَ الطفل إليها ورمى الألعاب إلى الأرض، وتلَقّتْهُ بأحضانها وهي تمثلُ الأم الحنون التي تحب طفلها وتفديه بمُهْجَتها.

تشاور الوغدان وتآمرا عليها وذلك للإيقاع بها في غفلة من الناس في هذا الركن المنعزل من الوادي، وأسرعا وراءها يمسكان بها ويَشُدَّانها نحوهم، يريدان الشَّرَّ بها وحاولا إغراءها بالمال، وكانت تقاومهما وترميهما بالحجارة وتضربهما بالعصا والفأس، وهما يزيدان إصراراً على الأذى بها.

أفلت الطفلُ وأسرع ينادي والده، نهض جابر من نومه وشاهدهما يعتديان على زوجته وكان دمه يغلي، وأرواحُ الشهداء تناديه بالانتقام، فما كان منه إلا أن تذكَّرَ بارودته المخبَّأة في البستان منذ مدة طويلة، ولكنه كان يصُونها ويُهيئُها للاستعمال، وقد أخفاها عن الأعين في التبّان.

أسرع وأخرجها من مَخْبَئها، لقد حان وقت استعمالها وجاءت ساعةُ الانتقام من المجرمين.

جاء إليهما ورأى زوجته تُصارِعُهُمَا! ونادت عليه: أنجدني يا زوجي....! فنادى: لبيك يا أم رافع! وصوَّب الرصاصَ عليهما، وأَردَاهما قتيلين يَتَضَرَّجانِ بدمهما، وهي تقول: سلمت يداك يا أبا رافع، ونادىٰ بأعلىٰ صوته: طاب الموت يا عرب....!

تجمَّعَ الناس من حوله يكبّرون ويُحيُّونَ عمله البطولي.

فما كان منه إلا أن ذهب مزْهواً إلى مخفر الشرطة، وسلم نفسه فخوراً بما أقدم عليه وهو مرفوعُ الرأس راضَي الضمير.

جاءت التعزيزات إلى الجبهة بعدَّتها وعَتَادها ورجالها مشاةً وراجلين ومحمولين، مدافعُ ورشاشاتٌ ثقيلة وخفيفة، وفرقُ استطلاع ومهندسون، إنه الجيشُ العربيُّ السوريُّ الفتيُّ الذي تشكّل بعد الاستقلال بجنوده الشجعان الأشاوس، أحفادُ خالد وأبي عبيدة وإبراهيم هنانو ويوسف العظمة وسلطان باشا الأطرش وصالح العلي وحسن الخراط وأحمد مريود... وغيرهم من أبطال الأمة الخالدين الذين قارعوا المحتلين والمعتدين والمستعمرين، وضحوا بدمائهم فداءً للوطن.تمركزَتْ القوات قبالة الحدود السورية الفلسطينية بمواجهة العصابات الصهيونية التي اعتدت على أرض وشعب فلسطين فقتلت الأرواح البريئة المؤمنة، وسلبت الأرض والأرزاق والممتلكات، وأصبح الفلسطينيون لاجئين مطرودين من ديارهم يعيشون في المخيمات بالدول المجاورة،

والعالم يتفرّج ويسكتُ على أعمال الصهاينة، بل باركوا قيام دولتهم على أرض فلسطين وبقرارات ظالمة بدعم من قوى الاستعمار والاستكبار الغربية وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية.

أنشأت القواتُ السورية تحصيناتٍ على خطّ الجبهة بمواجهة الحُصون الصهيونية التي تعتدي دوماً على أرضنا وقُرانا وشعبنا بأشكالٍ متعددةٍ من الخُروقاتِ العدوانية في البَرِ والجوِّ وشواطئ بحيرة طبريا. فرحَ السكان بهذه القوات واطمأنوا بوجودها، واشتدَّ أزرُهم، وقَويَتْ معنوياتهم وصاروا يُشكّلون جيشاً ردبناً لها، بعد أن تمَّ تشكيلُ كتائبِ الحرس الوطني في القرى والتجمعات قبالة خط الجبهة، فيساندون الجيش بالمشاركة بالحراسة والكمائن والدوريات والمراقبة؛ مساهمة منهم في حفظ الوطن من دنس المعتدين. كما قَوِيتْ مَعنوِيَاتُ الجيش بهم؛ لأنهم أعلمُ ببواطن الأمور والممراتِ والوهادِ والمرتفعات ونوايا المعتدين.

لقد عايشوهم قبل احتلال فلسطين وذاقوا ويلاتِ العدوانِ وشرورهم. فهم يكرهون كلَّ عربيّ ويتمنون قتلَهُ. حضَرَ إلى القرية الحدودية العالية (سكوفيا) فوجٌ من الخيالة الشجعان على جيادٍ مضمَّرةٍ قويةٍ. فحطوا رحالهم في كروم الزيتون المعمّرةَ لكثيفةِ يربطونها بجذوعِ الشجر برباطٍ سميكٍ قويٍ قادرٍ على لَسْجم حركاتها الشديدة المراس. إنها عُدَّتهم للمُناورَة والإغارَة عندَ اللزوم والوصولِ إلى مكان المعركةِ بسرعةٍ وسهولةٍ في أرض مليئةٍ بالتضاريس والوهاد والوديان والمرتفعاتِ.

كان الفرسانُ يعتنون بخيولهم فهي عدتهم في الحرب و الملمات. ويقدمون لها العلف والماء ويمتطون صهواتها في تمرينات الصباح والمساء، وأثناء التحركات على طول خطّ النار، وبنادقهم على ظهورهم معبأةٌ بالذخيرة لحين الطلب. كان شبان القرية ينظرون إلى الخيل والخيالة بافتخار، ويتمنون لو يشركونهم رعايتها وركوبها والعناية بها، فهم يعشقون الخيل ويعرفون طباعها وأصولها وكيف يتعاملون معها، لكن هذه الخيل تختلف عن خيولهم التي يربونها في قراهم للعمل والأعمال الزراعية، وقد هجنوها وتآلفت معهم، فهي تنصَاعُ لأوامرهم وهي طَيّعةٌ بين أيديهم. أخذ الشبانُ والرجالُ العاشقون للفروسية طوابقَ الخيول بإذنٍ من العسكر الخيالة، لسقايتها وإطعامها الحشائش الطرية من السهل القريب، حيث يستمتعون بركوبها والتّسابق في الدروب والمسطحات الخضراء الجميلة والسفوح الملتوية.

أما خيولُ أهل القرية فكانت تنظرُ إلى هذه الجياد الغريبة القوية

التي غزت القرية، بعيونٍ من الريبة والحذرِ والخوف.

كان لدى قائد الفوج حصانان فحلان عاليانِ ولهما حركات سريعة ويَقْضِمان حتى جذوع الشجر من شدَّةِ المراس، ولا يَكْبحُ جِماحَهما سوى القائد نفسُه أو سائِسُهما، عندما يركبانهما ويقودانهما إلى التمارين.

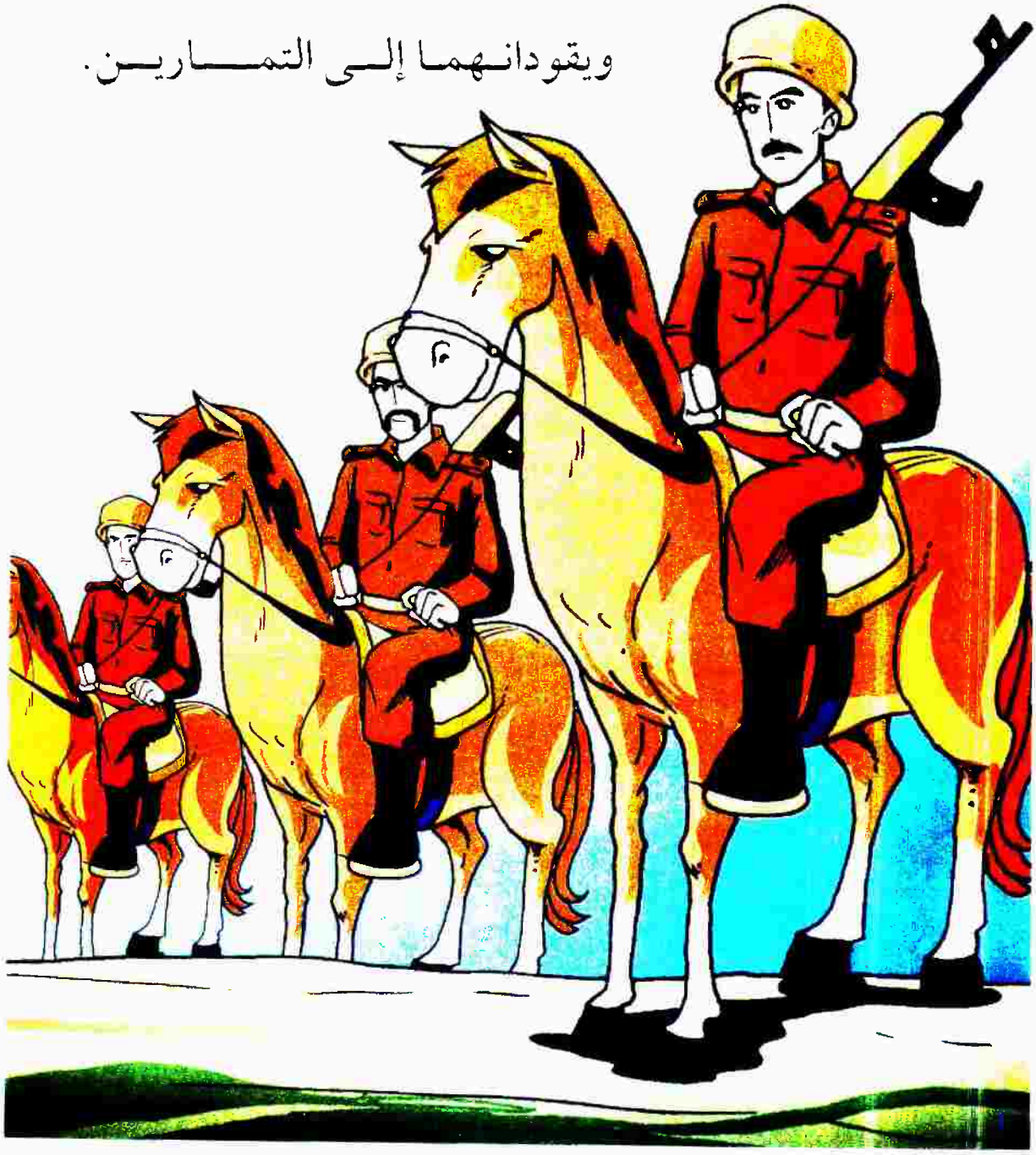

سأل شابّان مُغامِران من فتيان القرية هذا القائدَ أن بإمكانهما تقديم الخدمات لهذين الفرسين القويين. وهما قادران على السيطرةِ عليهما ولطالما طوّعا العديد من أمثالهما.

تردّدَ القائدُ في البدايةِ بتسليمهما الحصانين! لكنه وبعد إلحاح شديد من الشابين سَمحَ لهما بذلك. قادا الحصانين. وكلاهما مليءٌ بالثقة بنفسه وقوّته أنه قادرٌ على السيطرة. وكَبْحِ جِماحِ كلا الفرسين.

كانَ الشّابُّ قاسم يقودُ فرسَهُ نحو البيدر، ليربطها فوق كوم الحصاد. ولتجُرَّ النورجَ على السنابل المملوءَةِ حباً وقمحاً ذهبياً. وبعد أنْ ركّز القاسمُ عَمليَّة الدِّراسةِ وصارَ يسوقُ فرسه فوق البيدر. وهو يُرَدِّدُ ألحانَ الدَّرّاسين المعتادة:

يا مخزنَ الخيراتِ يا بيدر

وكلُّ ما تُعطى لنا يَسْحَرْ

فيك المنى فيك الهنى يَكثُرْ

يا مَنْبَعَ الحياة والمصدَرْ

والحبُّ يَأتينا بلونه الأَسمَرْ

في كلّ عـام هاهنا البيـدرْ

أحبـابَ عِـزٍّ ربَّنـا نشـكرْ

رأى الحصانان الجامحان الفرس فوقَ البيدر، وثارت ثائرتهمـا.

إنـهمـا مَكبوتان مـمتلئان حـيويَّةً وقوةً ونشـاطاً!

فما كان منهما إلا أن انتفضا ورَمَيا راكبيهما وأغارا نحو الفرس المربوطة للتورَج. وكان صَهيلهما يُنذِرُ بشرٍّ مُستطيرٍ أوقع الخوف والرهبة بالفرسِ وسائسها ومن معه.

لقد ثارَت غرائزُهما الحيوانية، ولن يستطيع أحدٌ إيقافهما أو صدّهما أو السيطرة عليهما. ورأت الفرس الخطر الآتي إليها والهجوم المخيف لهذين المتوحشين، فشردت هي الأخرى هاربة محاولة الإفلات منهما، وجرَّتْ وراءها أدوات الدّراسة لمربوطة بها واتجهت نحو السهل المجاور في طريق يؤدي إلى مُنحدر قوي في وادٍ عميقٍ سحيقٍ، وهما يلحقان بها ويفيضان غيظاً.

وصوتُ صهيلهما يملأُ السهل والوادي، والناس ينظرون إلى المشهد وكلهم شفقةٌ وحزنٌ على مصير الفرس.

حتى وصلت في آخر المطاف إلى حَفةِ المنحدر، ولم تجد الفرسُ مناصاً إلا المتابعة: إنه المصيرُ المحتوم.

ودون تَرَدُّدٍ قفزت في الهواءِ وبدت وكأنّها حمامةٌ يتبعُها عقابان شرسان، وكان الثلاثة، فرسٌ وحصانان، يَهْوون في منحدرٍ سحيقٍ على صُخور كبيرة وفي وادٍ مليء بالأشجار والضواري والوحوشِ الكاسرةِ التي وجدت فيهم وجباتٍ شهيَّةً لعدة أيام، فَشَبِعَت النسورُ والعُقبان، وصار المكان يسمى بمسقط الخيل، ويذكره النَّاس بالأسىٰ والحزن.

كان أبو ياسين النَّحَّال المحترف في قريته الرابضة على رابية في الجولان، في الزاوية الجنوبية الغربية من خط الحدود مع الأردن وفلسطين، يمتلك خلايا كثيرة من النحل ورثها عن أبيه وجدِّه، وقد أتقن تربية النحل وفهم طباعه وعاداته وحياته وما يحبه ويكره وما يضُرُّه وينفعُه. كانت حياته مع النحل كحياته مع أولاده وعائلته: يحافظ على سلامة أفرادها ويدافع عنها من كل معتدٍ يريد بها الشَر، كالدَبور وطائر الوروار وغيرها....

حتى إنه مرةً رأى بقالاً يَكشُّ النحل عن التَّمرِ المعروض في بقالته ويقتلُ بعْضَه فتشاجَر معه وقدَّم ضِدَّهُ دعوى بالإضْرار بالثروة المُفيدة. كان أبو ياسين يتحدَّثُ مع نفسه، فماذا يصنَعُ ويعمَلُ لقد أصبحَ عالةً على أبنائه، وملَّ القعودَ بين الجدران، وليس له مهمةٌ إلا الأكلُ والشرب وتناول القهوة المرّة وسماع أحاديث الضيوف عن النكسة اللعينة التي غيَّرَت حياةَ أهله

وسكان العديد من قرى الجولان الحبيب، وقلبت حياتهم السعيدة إلى جحيم لا يُطاقُ.

كان يَستمعُ إلى أحاديث الوافدين إلى داره وهم يَبثونَ شكاواهم وهمومهم ومَآسيهم، وهو ساكتٌ فلا تعجبُه هذه الأحاديث، وقد ملَّ سماعها إنه يكْرَهُ الشّكوى والظهورَ بمظهر الضعيف، كان دائماً قوياً شديداً في عمله وتعامله مع الناس ومع أولاده، لا يطيق الكسلَ ونومَ الضّحى ولا التَّراخي في العمل والإنتاج، وحتى في تناول الطعام.

كانت صورةُ كَوْمِ الخلايا المحشوَّةِ بالنحل والعسل تبدو أمامه في كرمِهِ وأمام داره، لقد غادَرَ القريةَ منذ أيام، يوم دخلها الأعداءُ الصهاينة وهو مُرْغَمٌ ومقهورٌ تحت قوَّة السلاح.

فكَّرَ وكان جاداً في الذهاب إلى القرية؛ لإحضار العسل الذي تركه في مخزن داره وفي خلايا نحلاته.

أَعَدَّ العُدَّةَ لهذه الرحلةِ الخطيرة، إنَّ في القريةِ جيشاً محتلاً ومعارك

تدورُ بينهم وبين الفدائيين الذين يكبّدونهم أفدَح الخسائر.

توجه أبو ياسين نحو الخط الفاصل بين الأرض المحتلّة والقوات

الصديقة من أرض الجولان،

وانتظر حتى حلول الظلام،

نزل إلى الوادي وتوجه إلى الطريق المتجهة إلى الشمال باتجاه قريته (سكوفيا) حيث كانت وجهته ومحطّ نظره ومهواهُ الأول والأخير.

وعندما وصل إلى بطن الوادي صادَفَ وحشاً جارحاً يترصّده ويريد به الشر، ولكنه لا يَعْرِفُ أن أبا ياسين رأى مثله الكثير وقتل أباه وأمه والعَديدَ من أمثاله. ولم يُعِرْ له بالاً أو يكترثْ به لولا خوفُ الدّابة التي يَصَحبُها من هذا الضبع المفترس ومحاولتها الهرب منه.

وصلَ الرجلُ دارَه عند خيوط الفجر الأولى، وتنفس الصعداء وحمد الله وأثنى عليه، ودخلَ بيته فوجدَه مُخَرَّباً ومُبَعْثراً وقد سُرق منه الكثيرُ من الأثاث والأدوات وَالحَليّ، أخذها الصَّهاينة كما سرقوا أغلب البيوت في هذا الجزء الغالي من الوطن الحبيب.

سمع أصوات الآليات المعادية تجوب القرية وتبحث عن الفدائيين العرب الذين يتصدون لهم ويلاحقونهم ليلاً نهاراً، وقد أقضّوا مضاجعَهم وأوقعوا بهم الكثير من الإصابات.

توجه إلى مخزون العسل في داره فوجده سالماً، فاطمأنَّ إلى غايته التي سيأخذها في رحلته.

ثم نامَ من شدّةِ التعب في الرحلةِ البعيدةِ والخطرة.

أفاق على نباحِ كلبه الذي قَوِيت معنوياتُه بوجود صاحبه معه في الدار بعد أن تولىٰ حراستها لوحده في الفترة التي تلت النزوح، ولما استطلع أبو ياسين ما يجري خارجاً وجد دوريَّةً للأعداءِ تدخلُ الدارَ، فأسرع متخفياً نحو خلايا النحل، إنه أفضلُ مكانٍ للتخفي بين النحلات صديقات عمره والمخلصات دائماً له، فوجدَ بينها فُرجَةً تَتَّسِعُ له، ومن حوله أعشاشُ النحل تتقاطر دخولاً وخروجاً وتشكلُ مجموعاتٍ لا تترك شكاً بوجود أحد مختبئ بينها، غَطّىٰ نفسه بقطعة من نسيج القصب الذي يَصنعُ منه الخلايا، ولكن وجود الحمار في الدار جعل المعتدين يتيقَّنون بوجود أحد فيها، ولكنهم بحثوا في كل مكانٍ فوق الأرض وتحتها وفي الزرائب والحظائر والبستان واحتاروا....!كيف اختفى؟ وكلما اقتربوا من خلايا النحل أثار عليهم أسرابَ النحل فهاجمهم ولاحقهم ولسعهم، فلا يبقى لديهم شكٌّ بوجوده عندها.

ترك الأعداء الدار بعد أن تأكدوا من هَرَبه خارِجَ محيطها وذهبوا لملاحقته بعيداً. خرج الرجلُ المختفي من مخبئه الأمين بين النحل المخلص، وتسلّلَ خارجاً يريدُ الاطلاع على بيوت جيرانه وأقربائه فيها، فوجدها مُخَـرَّبَةً منهوبَةً تذروا بها الريحُ أنواعَ الخراب من التدمير والحرقِ والسرقَةِ!.... قال: أين الصندوق المصدَّف الذي اقتنته أختي منذ زواجها؟ وأين جهاز العروس لأخيه الذي تزوَّجَ قبل النكسة؟ بل أين السجاد الذي كان في كل مضافةٍ ودارٍ؟ ولكنه بعد تأسُّفٍ وحَصْرٍ وحَسْرةٍ!...

قال: فماذا تَنْفَعُنا هذه الثانويات؟ ما دامت البلادُ قد احتلت، فنحنُ قادرون على تعويضها وعلينا أولاً استرجاعُ سيطرتنا على بلادنا وطرد المعتدين منها، وهذا ننتظره قريباً بعزيمة المقاتلين الأشداء من فدائيينا وأفراد جيشنا الباسل المقدام، رغم مؤامرات الدول المتجبرة مهما بلغت من القوة فإرادتنا أقوى من كل جبارٍ معتدٍ وصهيونيٍ مجرم ومهما دعمتهم أمريكا وأوربا والصهيونية العالمية.

رأى أبو سالم طائرةً مروحية فوق رأسه، وسارع بالاختفاء بين البيوت، ولكنهم لاحظوا وجوده فأطلقوا القنابل عليه وطلقات الرشاشات، أفلت الرجلُ من مُرَاقبتهم وعادَ إلى داره، وبدأَ بجمع حمله المؤلف من جرَّةِ عسلٍ وأكياسٍ من الطحين والدقيق وأواني مملوءة بالسمن والزبدة.بقي حتى أظلم الليل وانكَفَأَ الأعداءُ إلى ثكناتهم المحصنةِ، فهم يخافون هجمات المجاهدين ليلاً. سار في دربٍ فرعيَّةٍ بين أشجار الزيتون ومرَّ إلى جانبِ مقبرةِ أهل القرية، فتوقف عندها وقرأ الفاتحة لأرواحِ الأموات فيها والشهداء الذين قضوا بقصف طائرات الصهاينة على القرية قبل شهرين تقريباً، وكانوا ثلاثة عشر شهيداً والكثير من الجرحى. وقف فوق قبر ابن عمه أبي هاني الرجل الشَّهم الوطني الذي كانت القضية الفلسطينية هَمَّهُ الأول وشغلهُ الشاغل، وهو يستمع يومياً للإذاعة العربية السورية أو صوت العرب، رغم تعبه في الأعمال الزراعية والفلاحية فهو فلاح نشيط ومثقف وطنياً وقومياً،

وعلى يمينه قبر ابن عمه الشهيد أبي فوزي وابنه فوزي ذلك الشاب صاحب الأخلاق الحميدة، وكذلك أقاربه الآخرين من رجالٍ وشبابٍ وأطفالٍ في أعمار الزهور كلهم قدَّموا أرواحهم على مذبح الوطن الغالي، ورغم أن أبا ياسين لم يبكِ في حياته، فقد انهمرت الدموع من عينيه وبللت تراب الجولان في قريته سكوفيه ؛ لتروي أزهار الزنبق فوق أضرحة الشهداء.سارَ في دربٍ مظللمة بين الوديان والجُروف والصخور مبتعداً عن الطرق المسلوكة حتى لا يكتشفَهُ المحتلون، كان يسير بهدوء في طرقات عَرفَها وخبرَها يومياً، فهي صَديقَتُه ومرتعُ صباه ورُجُولته، فكم سار وركض وقعدَ بين أحضانها، إن كل ذرَّةِ ترابٍ تعرْفه وتشتاق له وكلُّ نبتَةٍ في السهولِ والحقول المترامية حول قريته ترنو له وتشرَئِبُّ لتلامسَ قامَته، فهي لا ترتاحُ دونه ودون أهل القرية النجباء.اكتشفت دوريَّة شبحَ الرجل المغامر أبي ياسين في الوادي المتعرِّج.

وباشروا بإطلاقِ النيران عليه وهو يختبئُ في ظلّ صخرةٍ كبيرةٍ وحمارُه في حفرةٍ قد حفرتها إحدى القنابلِ، ولما اطمأنَّ لزوال الخطر، تابع طَريقَه بحذرٍ حامِلاً جرّةَ العسل على كتفه وباقي الأحمال فوق ظهر الدّابة، وما إن وصل بطن الوادي العميق، تنفَّسَ الصُّعَداء ورمى أحمالَه وحَطَّ رِحَالَه عند غدير الماء، وكان القمر قد ظهر وبان نورُه يسطعُ على لُـجَّةِ المـاء، فشرب وارتوى هو وحماره من مائِهِ الصافي وخفَّ تعبُه، وهَدَأ روعُه، وكان يُرَدّدُ كلمات للأسى والحزن والشوق على الدّيار التي خلفها وراءه وهو يقول:

يا ليتني في سَماءِ الدارِ أبقى مثلَ ضوءِ الليلْ
فأرقُبُها في كُلِّ وقتٍ! ولو أتتها الخيلْ
وأَشمُّ عطرَ تُربتها! وكَأَنَّ فيها الهيل!
ونظرتُ عند قبلتي، ورأيت نجمَ سهيل
لو كنت عصفوراً على غصن بها فأميلُ كلَّ الميلْ
أو كنت بين النحل نحلاً! ما غادرتُها للسيل
لكنه قدَرٌ علينا! صار فينا ويلنا يا ويل!

وبعد أن توضأ وصلى صلاةَ الشكر لله على نجاته وأداها

ركعتين صلاة الـ ـ سارع لكي يتابع سيره نحو نقطة

الحدود التي دخل منها هو على موعد معهم، وقد وعدهم

بأكبة من العسل اللذيذ.

لاحظ بأن حمارَه قد بَركَ وهو يرتجفُ خوفاً، فإذا بالوحش الذي صادفه في ذهابه قد داهمهم وهو يرقبهم منذ دخولهم الوادي وهو يُضمِرُ لهم الغَدْرَ، إنه جائعٌ وجارحٌ، وبدت وكأنها أنثى وقد صَمَّمَت الحصول علىٰ طعام مهما كلَّفها ذلك، فقد خلت معركة مع الرجل الشديد الذي لا يخاف منها، فهو يَضربُها بعصاه الغليظة ويلقي عليها الحجارة الصمّاء فيصيبها فيرأسها، ولكنها تزدادُ تصميماً على الحصول على فريسةٍ وعيناها على الحمار الذي كادَ أن يموت خوفاً، وعندما ظهر نور الفجر هدأ الوحش وبدأ يقترب من حِمْلِ القمح الذي أنزله أبو ياسين إلى الأرض، وبدأ يحفرُ يريد الإيقاع بهم ومازال يُعمّقُ الحُفرةَ، ثم ينامُ فيها وهو يقصدُ تخويفَ الرجلِ

وأنه سينقضُّ عليه، وبسرعةٍ دفعَ أبو ياسين كيس القمح فوقع فوق الوحش وقعدَ على الكيس؛ كي يزيد الثقلَ على الضبع الذي وقع بالمصيدة، وهو يجأرُ، ويقطعُ الأنفاسَ وما نفعه محاولةُ الإفلات من الحفرةِ التي حفرها وقد وقع فيها، وأبو ياسين يُشدِّدُ عليه وهو يقولُ: مُتْ أيها الحقير المعتدي! إنك من مَعْدنٍ عدواني يحبُّ القتل وسفك الدماء، وأنت وهم سيّان؛ فالصهاينة المعتدون يعشقون قتلَ البشر وإزهاق الأرواح، فسوف نرى فيهم يوماً يكون مصيرهم مثل مصيرك الأسود.وعادَ الرجل الشديد مع أحماله وحماره، فاستقبله رجالُ الحدود مُهنئيه بالعودة سالـمـاً، كمـا كان في انتظاره أولادُه وأصحابه الذين فرحوا بسلامته، وكلهم شوقٌ لسماعِ أخبار القرية والديار، ويملأهم الأملُ بالعودةِ قريباً إلى مسقط الرأس أرض المحبةِ والجمالِ والخير العميم إلى الجولان.

الجولان السوري

الولدان الشجاعان

في مساء يوم حزيرانيّ كئيب، عاد قطيعُ البقر من مرعاه مثل كل يوم، ولكنه وجَدَ هذا اليوم مختلفاً جداً!، لقد شاهد في الدار أشخاصاً غرباء لا يشبهون أحداً من أصحاب القطيع، إن لهم سحناتٍ ذاتَ وجوهٍ كالحةٍ ويَلهَجُون بلغةٍ غَريبةٍ، فأين أم قاسم؟ وهي ترحَبُ بالبقراتِ وتسمي كلَّ واحدةٍ باسمها، وأين أبو قاسم؟ وهو ينادي على الثور الكبير؛ كي يدخلَ الزريبة! نَظَرَتْ البقرة الحمراء إلى أمّ البقرات مُتسائلةٍ؟فهي صاحبة خبرَةٍ في الحياة، وتعرف ماذا يجري هنا لاحقاً وسابقاً عندما رأت أمثالهم في قرى فلسطين حيث وُلِدت هناك، وهم لا يتوانون عن قتل البشر والحيوانات، إنهم سفاحون. وهذا العجْلُ المقتول عند باب الدارِ أكبرُ مثالٍ، فأوحت لها بخطورةِ الموقفِ وعليهم الهرب من الدار حتى لا يتعرضوا للمصير المجهول.

كان الثورُ يَفْهم مَا يَجْري وينتظر الفرصة للنجاة بالقطيع.

هو يرى رجالاً يحملون الرشاشات والقنابل ويمتطون عرباتٍ صفحةٍ ويطلقون النيران في كل اتجاهٍ، وهكذا هجعَ الجميعُ استسلموا للقدرِ وما سَيَحدثُ في هذه الليلة. كان الكلب يتواجد وق سطح التبّانِ، وقد رأى مصرع أخيه على يد هؤلاء الغزاة، ندما نبحهم ودافع عن الدار لما دَخلوها، إن جثته مازالت مرمية سط الساحة يَركُلونها بأحذيتهم ويدوسونها بعجلات عرباتهم، ما قتلوا العجل ابن البقرة الحمراء، وهاهم يُقطّعون لَـحْمَهُ يأكلوهُ مع الشراب الذي لا يفارقهم أبداً، يحملونه أينما كانوا بأيِّ وقتٍ، كانت الدوريات تروح وتجيءُ إلى ساحةِ القرية، يُمسكون بأسلحتهم ورشاشاتهم وهي مهيَّأةٌ للإطلاق، وكلهم خوفٌ ورهبة من الفدائيين الذين أقضُّوا مضاجعهم وقتلوا منهم لعديد وفجّروا آلياتهم ودروعهم. وفي آخر الليل كان المحتلون قد انكفؤوا إلى داخل البيوت التي حَصَّنوها،

وناموا بعد سكرٍ وعُهْرٍ وسهر. وفي الطَّرفِ الآخر من الدارِ، كان

يختبئُ شابان يافعان في بطنِ التَّبّانِ المنعزلِ عن الدار،

وقد صَمَّما على أخذِ القطيع إلى خارج الحدود حيث أَهْلُهمَا في حاجةٍ ماسةٍ له، فلا لبن أو حليب أو زبدة عندهم، وهما يختبآن هنا منذ يومين لتحقيق هدفهما بعد أن أقسما على أخذ القطيع ولو كلفهما حياتهما، إنه غال عليهما.

كان في ساحة الدار جنديان من الغزاة يحرسان القوات والقادة في الداخل؛ لأنهم جعلوا قيادتهم في العُليةِ حيث مضافة أبي قاسم، وكانا يغليان إبريقاً من الشاي يطبخانه على نارٍ من الحطب، نظر الشابان إلى هذين الصهيونيين الدَّخيلين وفكَّرا التخلُّص منهما؛ لكي ينجوا بالبقرات المتأهّباتِ للرحيل في عتمةِ الليل، فقد كان يقولُ عنه آباؤنا: الليلُ أبو ساتِر، فإنه يَستُر عليك مسيرتكَ.

نظرَ أحدهُما إلى سقفِ التبان فوجد بين خشباته أفعىٰ تتمدَّدُ بعدَ أن ابتلعت فأراً، وأصبحت بطيئة الحركة، لا حراك لها،

فأسرعت الفكرةُ إلى رأس أحدهما فأمسك بالأفعى من رقبتها و[illegible] نفسه متسللاً حتى وصلَ قريباً منهما، وألقاها عليهما وكأنها وقعت من السماء! فأجفلا وهَرَبا تاركين سلاحيهما، وهكذا وجدا الفرصة الذهبية للنجاة بنفسيهما والقطيع، وظهرا في ساحة الدار وعندها رآهما الكلبُ الذي أسرع إليهما! فكتما عليه نفسه حتى لا يُسْمِعَ صوته للأعداء من شدَّةِ فرحِه بهما، وعندها فتحا البوابة بكلِّ هدوء وأشار للكلب بأن يجمع القطيع ويخرج من الدار، ومع تأهُّب الثور لهذه العملية وفرحه بظهور الشابين المنقذين، سار القطيعُ بكلِّ هدوءٍ وثقةٍ! والولدان الشجاعان يقودانه وهما يحملان سلاحي الجنديين الهاربين المذعورين من الأفعى التي لاحقتهما.

سارَ القطيعُ خارجَ البلدة وبين البساتين وفي دربٍ فرعيةٍ غير مكشوفة يتقدَّمُه الثور الكبير، وفي المؤخرة الكلبُ الأمين، والشابان في وسط المسيرةِ حتى لا يلاحظهما العدو.

اكتشفت دوريَّةٌ للعدُوِّ هذا الركب المنطلق نحو الجنوب فأسرعت تُلاحِقُه، وتُطلقُ عليه النار والقنابل المضيئة، فأسرعوا للتخلص من خطر يَلحقُ بهم وفيه الشّرُّ المستطيرُ من عدوٍ لئيم، وكان الله قد أرسلَ لهم مجموعةً من الفدائيين المتربصين للأعداء في مكمَنٍ قريبٍ من مسيرةِ القطيعِ الذي جاوز نقطة الخطرِ، واقترب من قاع الوادي المجرى الآمنِ والمحتوي على الماء الجاري النظيف، فشكروا الله على نجاتهم وهجعَ القطيع قليلاً بعد أن شرب وهَدَأ روعهُ، والشابان يرقبان المعركة التي نشبت بين المقاومين وجنود الأعداء الذين لاحقوهم! ولكنهما تمنيا لو يستطيعان المشاركة في هذه المعركة إلى جانبِ المناضلين الفدائيين، خاصة وأنهما يملكان السلاح الذي أخذاه من الجنديين، ولكنهما لا يعرفان استعمال هذا السلاح، وأقسما بأن يعودا إلى ساحة المعركة مع الفدائيين؛ ليدافعوا عن كرامة وأرض الوطن الذي يناشدهم كي يطردوا العدوان ويستعيدوا الحق ويرفعوا راية النصر.

قطع الركبُ الوادي إلى الطرف الآخر. حيث الأهل والقوات الصديقة والرفاق الذين ينتظرونهم بفارغ الصبر. وكانت فرحة الأهل بهم وصاروا مفخرةً ومثلاً بين الشباب. وكلٌّ يسمعُ الأمثولة التي قاما بها ويريد أن يصير مثلهما ويقتدي بشجاعتهما. أما الأهل فنعموا بخيراتٍ وطعام هانئٍ من خير ما جاء به الشابان. وأقبلت البقرات على أم قاسم والبنات والبنين الذين كانوا في رفقة دائمة معهن وكلهن سعادة وسرور. أما الكلب ورغم حزنه على أخيه المقتول، فنال شرف الرعاية والمحبة عند الجميع.

معركةُ الجنوب في الحمة

في منخفضٍ عميقٍ من غور الأردن، تَربُضُ مدينةُ الحمةِ العربية في
واحةٍ من الأشجار والبساتين،
والحدائق الغنّاء المنضدةِ
وكأنها لؤلؤة في جيد
فتاةٍ عربيةٍ جميلةٍ تزين
الوادي ببيوتٍ راقيةٍ،
وفللٍ مزروعة بالورود
والريـــاحيـــن،

إنها محصورةٌ في مثلثٍ بزاويةٍ بين ثلاث دولٍ، فلسطين والأردن وسورية، ويمُر بجانبها نهرُ اليرموك الشهير، المنسوب إليه ما وقع فيه من أحداثٍ تاريخية غيَرت وجه التاريخ، إنها معركة اليرموك وأبطالها الميامين أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة، الذين دحروا جيوش الروم وهزموهم في بطن هذا الوادي، وكان مقبرة للغزاة في ذلك العصر، كما سيكون اليوم مقبرة للغزاةِ الجُدُدِ من مجرمي العالم، صهيونيين وموساد.

وهناك تُحيط بالمدينة جبال ومرتفعات تسكنها مجموعاتٌ من أصولٍ عربيَةٍ عريقةٍ، اشتهرت بالرجولة والكرم والنخوةِ، وقد رأت ما حدث في فلسطين العربية، وشاهدت إجرامَ الصهاينة المعتدين المحتلين التي تفوق جرائمَ النازيين والفاشيين فهم عصابات منظمة مثل الهاكانا والشتيرن والأرغون، وَسحتهم تَوى الاستعمار بأنواع السلاح والقوة.

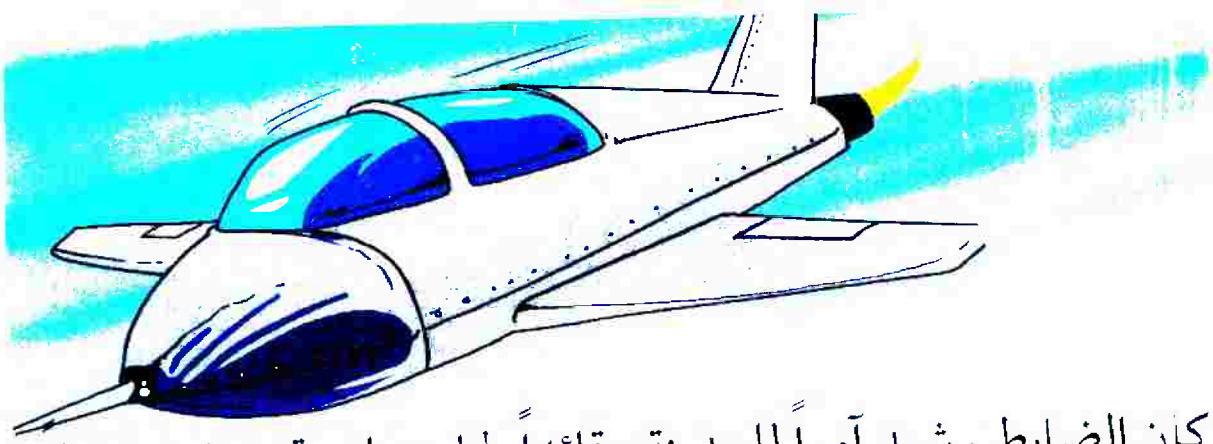

كان الضابط رشيد آمراً للمدينة وقائداً لحاميتها، وقد وضع نقاطا ومخافرَ ومجموعاتٍ من الجيش العربي السوري والحرس الوطني في داخل المدينة وحولها، وطلب من عناصره التخفي وإخفاء نقاط تواجدهم، كما أمرَ بتسليح المدنيين الذين طلبوا تزويدهم بالسلاح؛ كي يساهموا بحمايةِ مدينتهم من عدوان الصهاينة المتجمعين في مدخلها الغربي. اجتمع بعضُ شباب المدينةِ ممن لهم خبرةٌ في القتال في معارك فلسطين الحبيبة قبل أشهرٍ، وذهبوا إلى القائد رشيد، وطلبوا منه أن يسمح لهم بالعمل خلف خطوط العدوّ إذا هاجم المدينة؛ كي يضربوا مؤخرَته ويُرْبكوا قواتِه المتمركزة خلفَ تلةٍ قريبةٍ من المدينة، وبعد أن اتفقَ معهم على الخطة أعطاهم الأمر بتنفيذ هذا النشاط.

وعيَّن عليهم أحدَ المساعدين الشجعان من عناصرهِ في الجيش العربي السوري. زرع المقاومون عن المدينة ليلاً الكثير من الألغام المضادة للآليات، وبنوا المتاريس والحواجز للمعركة المنتظرة. التي ظنّها العدو نُزْهةً كي يدخلوا هذا المكان الجميل. أعلمت القيادة الضابط آمر الموقع، بنيَّةِ العَدوِّ بالهجوم عليهم و لاستيلاء على الموقع، وأنها وضعت قواتِ إسنادٍ في المرتفعاتِ المحيطة بهم ومعهم مدافع ورشاشات ثقيلة لقصف العدو وإفشال هجومه الوشيك. تقدمَ استطلاعُ الأعداءِ في صباحِ اليومِ التالي فوجدوا أمامهم الحواجز والألغام فتوقفوا عندها، وأوعزوا إلى سلاح الهندسة وكاسحات الألغام بإزالتها، ومع ذلك فلم يظهر لهم أَحَدٌ من المقاومين حسب الخطة التي وضعها القائد العتيدُ. وكان قد أمرَ بألا يطلق أحدٌ رصاصةً إلا بعد أن يعطي هو ذلك من مسدسه ويأمر بذلك، وأن تفتح جميعُ الأسلحة نيرانها سوية،

بحيث لا يترك للأعداءِ فرصةً للتقدُّم أو النجاة.بدأت آلياتُ العدوّ الكاسحة للألغام بإزالتها، وتقدم خلفها أرتالٌ من الدباباتِ والمشاةِ وهم واثقون من تحقيق هدفهم، وأن المدينة ساقطة بأيديهم.كان الرقيب محمود والعريف خالد وعَليّ أحد أفراد الحرس الوطني أقرب المجموعات المتخفية إلى القوات المهاجمة، وينتظرون لحظة الصفر؛ كي يلهبوا العدوَّ بنيران رشاشاتهم وقنابلهم، ولما طالَ الصمتُ ولم يعلن بعد آمرهم البدء بإطلاق النار، قال العريف للمساعد وعنصر المقاومة: سوف تروني أهجمُ على أول دبابة! وألقي بداخلها قنبلةً تفجِّرها!... سوف أتسلق إلى فتحتها فاحموني بنيرانكم حتى أصل إليها، وبعدها يكون مصيري كمصير من سبقوني من الشهداء الخالدين.وفي لحظة رهيبة ظهر البطل الشجاع القائد بقامته المنتصبة يتقدَّمُ المقاومين، ويحملُ مسدسه الآلي ويطلقُ النار على المهاجمين الدخلاء،

فيصيبُ قائدهم المحمول على ظهر الدبابة فيُردِيه إلى حتفه بإلى جهنم وبئس المصير. وكان خلفه مجموعةٌ تحمي ظهوره وظَهرهُ وتطلق رشقاتٍ من نيرانها لحمايته. فإن سلامته مهمةٌ في نجاح المعركة وكانت الشرارة التي فتحت أبواب جهنم على المهاجمين. من كل أنحاء تحت الأرض وفوقها رصاصٌ وقنابلُ ومدافعُ.

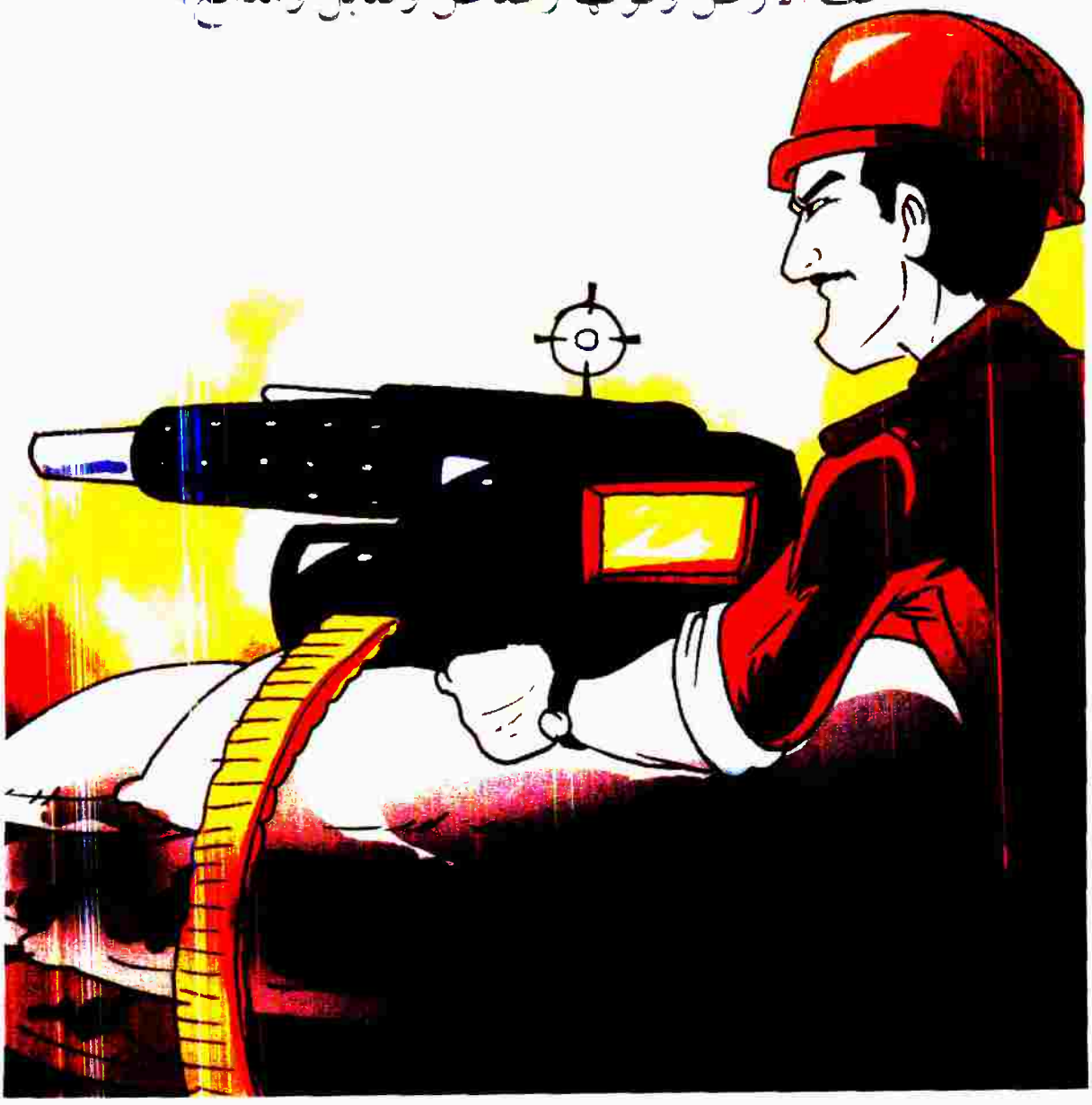

تلهَا تدكُّ أرتالهم المكشوفة فتشعل فيها النار، فيقعُ من يقعُ صريعاً يتخبط بدمه فتأكله النيران وتنتثرُ أشلاؤه في الدروب المؤدية إلى المدينة.تقدم رتل في طريق فرعية يريد اختراق التحصينات، واقترب من المقاتلين محمود وقاسم وعلي! فما كان من المقاوم علي إلا أن قفز كالنمرِ يهجم على مقدمة الرَّتلِ بقنبلةٍ أزال صاعقها وتسلق برجَ الدبابة وألقى بها لتنفجر بمن فيها! ويلقىٰ هو ربه، لقد نال الشهادة التي وعدها الله للمقاتلين الشهداء الأبرار.

وكان العريف والمساعد يحميانه وهو يتقدم إليها وَحَالُ العريفِ تقولُ: لقد سَبَقْتَني يا أخي، وهاهي المعركة مستعرة ونحن لاحقون بك إنْ شاء الله، ولن نترك الأعداء يدخلون إلا على جثامينا.

وعلى التِلال المحيطة، كانت المدافعُ السورية تدكُّ أرتال المهاجمين فتصيبهم وتفجرهم، فتجعلُ من تقدمهم أمراً عسيراً، أما المقاتلون من عناصر الجيش والمقاومون الأشداء

فكانوا يتصدون للعدوان فيقتلون الصهاينة أينما حلوا أو تقدموا أو تراجعوا. وعندما وجدَ العدوُّ خسائرَه تكبرُ وآلياته تُدمَّر وتقدمه يتوقف، وربحه المعركة مستحيل! أُمِروا بالتراجع والتقهقر، وألا يتركوا قتلاهم في أرض المعركة فربطوهم بالحبال وجروهم وراءهم.

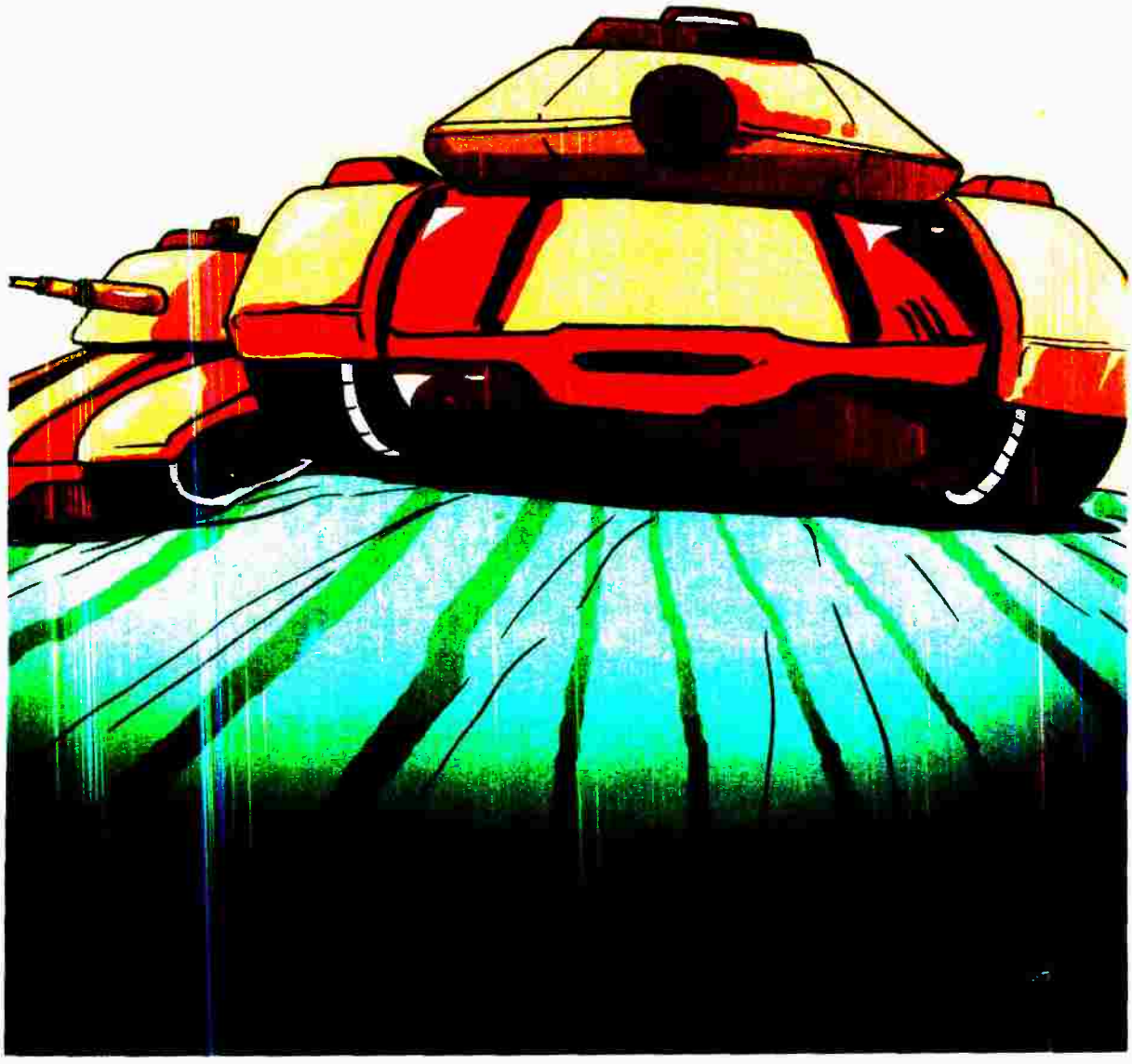

وكان النصر للمقاومين وأفراد القوات المسلحة والقائد البطل الذي أعطى جنوده دفعاً كبيراً من المعنويات بوقوفه أمام الهجوم وتقدمه القوات المدافعة غير هيَّابٍ ولا وَجِلٍ من الموت.

وفي الطرف الغربي للمدينة، كانت المجموعاتُ المرابطةُ خلف القوات المهاجمة تصلها رشقات من الرصاص والقنابل فتلهبُها وتقتُلُ أفرادها وتُدمّرُ آلياتها.وتراجع الهجُومُ عن المدينة، وتقهقر العدو تحت ضربات المقاومين، وارتفعت راياتُ النصر، وكبَّرَ الناس وتسابقوا يُهنِئون بعضهم ويباركون لمن صنعوا النصَر وردّوا المعتدين، وترحّموا على أرواح الشهداء الأبرار الذين قدَموا أرواحهم عربوناً على مذبح الوطن أمثال البطل المقاومِ عليّ الذي جعلَ من جسده قنبلةً فَجَرَت دبابةَ الصهاينة وأعاقت تقدمهم.

عرفَ القائدُ المنتصرُ الظافر بالنصر أن العدوّ سينتقم منهم بالقصف وبتدمير مُقوّمَات المدينةِ والمقاومين بقنابل الطائرات والمدافع بعد تقهقره وانكساره وخسارته، فأعطى تعليماته وأوامره باللجوء إلى الخنادق والتحصينات والأقبية، لاتقاءِ أخطارِ القصف المتوقع.ظهرت الطائراتُ العدوَّةُ في السماء وأرسلت قنابلها تفجّرُ البيوت والشجرَ والحجرَ والأنفسَ، فقتلتْ الأطفالَ والنساء والرجال، ولكن المدينة صمدت وظلت عربية بأهلها وبيوتها ومائها وهوائها، وحافظ الأبطالُ والمدافعون على مدينتهم من الاحتلال الصهيوني البغيض الذي ابتُليت به المدن الفلسطينية الحبيبة والمقدسات الإسلامية الغالية.وبقيت الحمة قبلة الناس القادمين إليها من جميع أنحاء سورية والوطن العربي والعالم،

ليتمتعوا بجمالها ومياهها الكبريتية العجيبة بعيونها وينابيعها الثلاثة، المقلىٰ والبلسم والريح التي تتفاوتُ في سخونتها حتى 40 ° مئوية، وفيها الشفاء لكثير من العلل و الأمراض، وبقينا نحن نقصدها للتمتع بالمشاهد والجو اللطيف وقضاء الأوقات الممتعة تحت الأشجار الباسقة والماء الجاري والوجه الجميل، وبقي شاعرُها ينشدُ:

ستظلُّ يا وطني عزيزاً أكرما

وتضيءُ يا وطني دروب من انتمىٰ

ونصيرُ حراساً لنفديك الدَّما

لن يدخلَ الأعداءُ أرضك والحمىٰ

لن يستبيحك معتدٍ مهما رمىٰ

لو صارَ كلّ الحيّ فيك مهدَّما

لو أحرقوا الأرزاق وكلَّ ما نَما

لو جرَّفوا الأرض وداسوا الموسما

قسماً نُردِّدُ صامدون لتسلما

معركةُ الشمالِ عند مَصَبِّ النهرِ

في طريقٍ ترابيَّةٍ بين الجبالِ والوديان تؤدي إلى عين الماء، كنّا نتسابق نحن الصغار نحو مَرابضِ صيدِ العصافير، ونحملُ فخاخاً ننصبُها للدرّاجِ والسمَّنِ والزرعيّ وغيرها من العصافيرِ المهاجرةِ والمستوطنة، وما أكثرها في هذه الأرض المملوءة بالخير العميم.

هذا هو الشيخ العتيد خليل، قالها صاحبي، فهيا نستمعُ منه لحكايا الشَّيقَة ككلّ مرةٍ، إنها ممتعةٌ ومفيدة، كان يُحمّلُ حمارَهُ خضاراً طازجةً قطعها من حقلِهِ في بطن الوادي، يريد بيعها في قريتنا؛ ليكسب بعضَ المال يسدُّ به مصروفه وعياله.

لقد زرع هذه الخضار وسقاها واعتنى بها حتى أثمرت بجهدِهِ، وكانت بواكيرها طيبةً يانعَةً أينعَتْ قبل مثيلاتها في السهول العالية.

ها هو يَفْرَحُ بنا ويجدها فرصةً كي يبوحَ بأسراره التي احتفظ بها زمناً، وكنا نشتاقُ لحديثه الجذاب ونحن نأخذُ العبرَ رغم صِغرِنا وحداثتنا؛ لأننا شاهدنا المآسي تحلُّ بشعبٍ عربيٍ في فلسطين المجاورة، والشيخ خليل أحد الناس الذين اكتووا بهذه الاعتداءات الإجرامية؛ إنه من قريةٍ في جبال صفد شمال بحيرة طبرية غرب نهر الشريعة المقدسي،وإن السيد المسيح - عليه السلام - قدْ تعمَّدَ هو وتلامذته بمياهه ومياه البحيرة العذبةِ الصافية وباركها. جَلَسَ الشيخُ على صخرةٍ ونحن نتحلَّقُ حوله ننظرُ إليه بوَقارٍ، وهو الرجلُ المهيبُ بطولِ قامته وزنوده المفتولة ونظرته الحادة وعباراته الموزونَة المتأنِّيَةِ. كان يعطي أحدَنا عصاهُ الغليظةَ ويطلب أن يضربه بكلّ قوّةٍ، فيتلقفها وكأنها ريشةٌ تذروها الرياح. وكثيراً ما يوزعُ علينا من حِمْلِه كالخيارِ والبندورة ويصرُّ علينا أن تناولها.

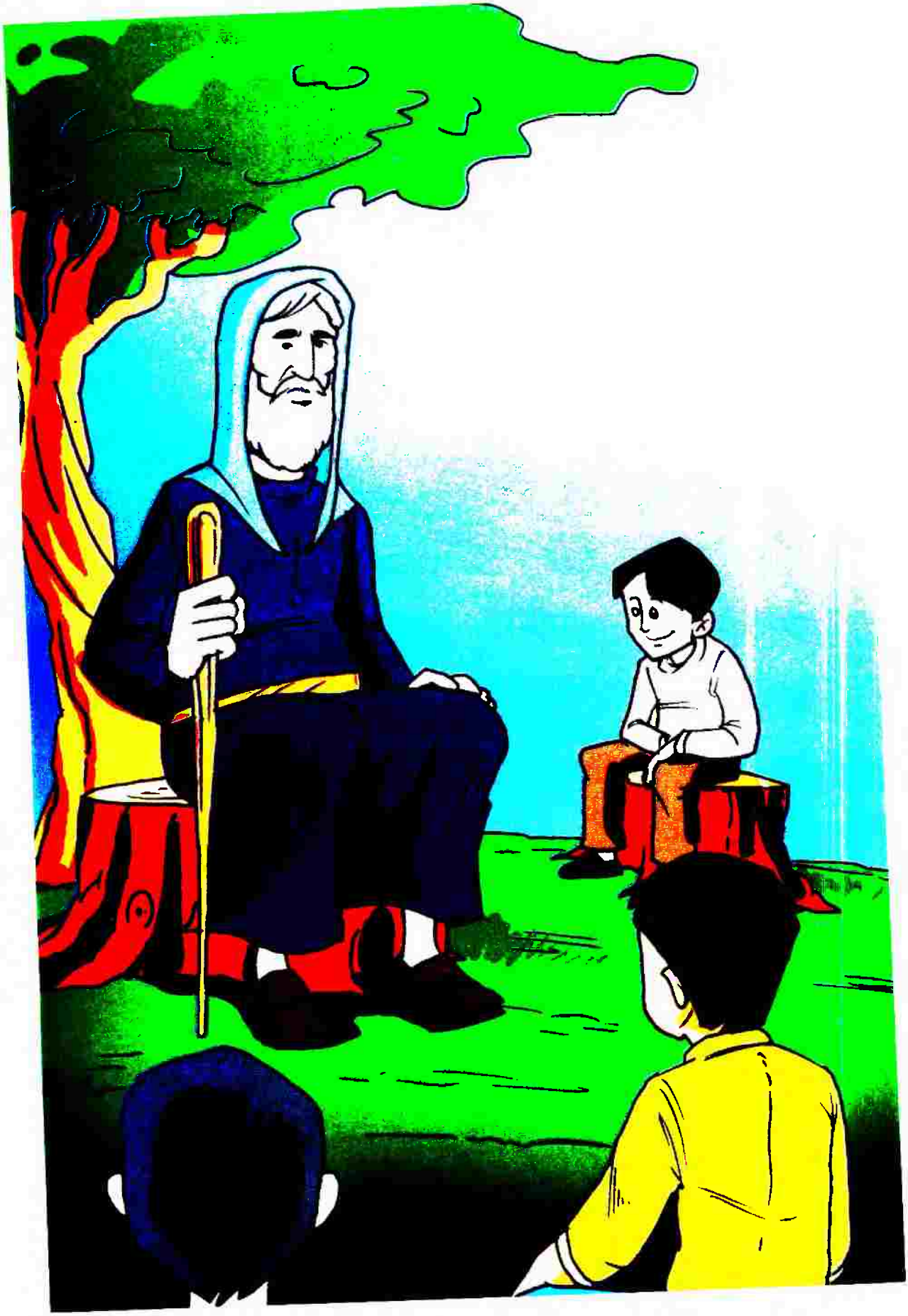

قلتُ له: إننا نريدُ أن نَستَمتعَ بقصَصِكَ التي طالما تُتحِفُنا بها، خاصة المعارك التي خُضْتها مع الصهاينة المجرمين على أرض فلسطين الحبيبة.

قال: هي كثيرةٌ بقدرِ المآسي التي وقعت على شعبنا والمؤامرات التي حِيكت في الغلَنَ والخفاءِ مثل وعد بلفور، واتفاق سايكس بيكو الذي قَسَّم الوطن العربي فيما بينهم. ونحن ننهزمُ أمامهم ولا نقدرُ على ردِّهم، لأننا متفرقون ولا نحسبُ للمستقبل وكيف نُجنِّبُ شعبنا المآسي والكوارث، فكونوا أنتم من يَرُدُّ لنا حقَّنا.

قال: لقد سمعتم بمعركة الشجالنة، إنها البقعة من الأرض العربية في فلسطين تحتوي على قريةٍ يسكنها عربٌ منذ القِدَمْ. تَرَبّوا فيها وربوا أولادهم على الفروسية والإقدام والمروءة والكرم العربي. بَقيت في يد الجيش السوري غرب نهر الشريعة في منطقة حساسةٍ عند مصب النهر في بحيرة طبريا.

كان أهلها محاربين من الطراز الأول، يساندون عناصر الجيش العربي المتمركز في أرضهم للدفاع عنهم، أراد العدو احتلالها مهما كان الثمن؛ فهي استراتيجيَّةٌ بالنسبة لخططه ومخططاته مُنذُ القدم، ويريد استغلال مياه النهر والبحيرة في إرواء أرض فلسطين التي احتلها وطرَدَ سكانها.قال الشيخ: هاجمنا الصهاينةُ بأفواجٍ من المشاةِ والمصفحات والمدفعية على الأرض، وبالطائرات من الجو، وبالزوارق الحربية من البحيرة، وفتحوا علينا عدة جبهاتٍ، والرصاصُ مثل المطرِ والقنابل تنزلُ فتنفجرُ بين المتاريس والخنادِق،ونحن نرُدُّ هجماتِهم ونقتل المتقدمين منهم ونصرعهم برصاصِ بنادقنا،

وأفرادُ الجيش السوري لا يَهابونَ الموتَ وكثيراً ما كانوا يهجمونهم رغمَ قلةِ عددهم وعدتهم إذا ما قيست بقوات المهاجمين. وما نحن أبناء القرية فكنا نُشجّعُ بعضنا على الصمود في وجه هذه الهجمة الشرسة التي حشدَ لها العدو إمكانات كبيرة ومساندةً كبيرةً.

أما عناصُر المجاهدين المتواجدين على أرض المعركة فكانوا يفجرون الدبابات ويرمون المهاجمين بالقنابل اليدوية. وصوت تكبيرهم يعلو مع علو الانفجارات ولَعْلَعةِ الرصاص. ورأيتُ مجموعةً من المقاتلين الشركس بين أفراد الجيش السوري يهجمون على الصهاينة بالسلاح الأبيض وجهاً لوجهٍ، فينحرونهم بالحراب والسكاكين ويظهرون لهم كلما اقتربوا من أرض المعركة، إنها الملحمةُ في أرض الشمال من الصباح حتى المساء وقوافلُ حَملاتِ الصهاينة تتوالى علينا، فقلت له وأنا الطفلُ اليافعُ: لقد رأيت المعركة يا عم خليل، كلُّ أبناءِ القرية شاهدوها وتسَمَّروا على أساطيح البيوت يرقبونها،

وكم تمنوا أن ينصر الله المدافعين الأبطال على هؤلاء المعتدين الظالمين، ولكن الكثرة والعدة والعتاد غلبت القِلة وبقيت المعركة حتى المساء، وقد انطبق عليها قول الشاعر شوقي في وصف معركة ميسلون وقائدها البطل يوسف العظمة:

أقامَ نهارَه يُلقي ويُلقى ولما زال قُرصُ الشّمسِ زالَ

وكُفّنَ بالصَّوارِمِ والعوالي وغُيّبَ حيث جالَ وحيثُ صالَ

قلت: وماذا عنك أنت حيث شاركتَ في مجرياتها منذُ بدأت وحتى نهايتها؟

تأوَّه وقال: ما تركتُ رصاصة معي إلا أفرغتها في رأس عدوٍّ مقبلٍ أو مُدبر فإنني صَيادٌ ماهرٌ، أرمي الهدف وأصيبُ في مقتلِ المهاجمين.

ولكنني تعرضت للقذائفِ والطلقاتِ من كلِّ جانبٍ وعَدُوٍّ. ونَجوت ولم أُصَبْ. وهذا قدري وما كتبه الله لي. أما رفاقي في المعركة فرأيتهم يتساقطون الواحد تلو الآخر.

وهم يشتبكون مع أفرادِ الحملةِ المعادية، كانت الأرض تحترقُ والسماء تمطرُ لهباً والموتُ في كل مكان، لقد تكبَّدَ المهاجمون عشراتٍ من طواقمهم قتلهم المدافعون عن الموقع عن الأرض عن الكرامة، ولكنهم ضحوا بأرواحهم فداءً للوطن. قال متابعاً: ونظرت إلى يميني فرأيت المقاتلَ أحمد إنه جاري في القتال وجاري في السكن، فإذا به يعاني من جراحاتٍ خطيرةٍ ودمه ينزفُ، فآليت على نفسي أن أسعفه وأنجو به نحو الحدودِ القريبة عبرَ النهر لَعَلّي أُنْقِذُ حياته فهوَ أبٌ لخمسة أولاد صغارٍ وأمهم تدعو له بالسلامة والانتصار. هَمَمتُ وتحت وابل الرصاصِ وقد خيّمَ الظلامُ علينا، وحَملتُهُ وزحفتُ به حتى مجرىٰ النهر المتدّفق مياهاً بارِدَةً، كان أحمد يرتجف برداً من كثرة مَا فقدَ من الدماء، وخلتُهُ يصارِعُ الموتَ، وخَشيتُ أن يفارِقَ الحياة بين يدي، وأسرعتُ عبرَ النهر وقد أعانني الله على إيصاله إلى برِّ الأمان، حيث كان الناسُ وطواقِمُ الإسعاف فكان له، النجاة، وفرحَ به أولادُه وزوجته وأهله،

وهو يذكرُ ولا ينسى ما صنعتُه له ولكني أذكرُها كأداءٍ واجبٍ

وأن علينا أن نساعد بعضنا ونتعاونَ في ردِّ الملمات.

أما أنا فقد آليتُ على نفسي مقاتلةَ الأعداءِ الصهاينة وألا أترك لهم فرصةً للراحةِ ما دمتُ قادراً على هذه المهمة المقدَّسة، فاحتفظتُ بسلاحي وجهزتُه لحين الفرصةِ المواتية، ونحن مُتسَمِّرون نَسْتَمعُ له، وحمارُهُ استَغَلَّ الوقت في قضم الحشائش والزروع على طرفي الطريق، أما نحن فلم نتذكَّرْ الأفخاخ التي نصبناها غيرَ بعيدةٍ عنا وهي تمسك بصيدها الذي يحاول الإفلات منها، فرجوتُهُ أن ينتظرَ بعض الوقت لكي نجمع الصيدَ من الأفخاخ، فما كان منه إلا أن أخرجَ علبةَ التبغ ولفَّ لفافةً منه وأشعلها، وكان ينفُخُ مع كل نَفَسٍ يطلقه حسرةً على بَلْدَتِهِ التي فقدها ومسقطِ رأسه المحتلّ من قبلِ أعداءٍ جاؤوا من بلادٍ بعيدةٍ طامعين في خيراتنا وأرضنا، وَتابعَ حديثه: أخذت بارودتي وانزويت في إحدى المغاور عند الوديان العميقة.

وأصبحت أرقبُ المعتدين عند طلوع كلّ فجرٍ وأتصيدُ أحَدَهم في مَحْرَسه أو أثناء تبديل طواقم دورياتهم، فأرديه قتيلاً يتخبَّطُ في دمه، وهم لا يعرفون من أين تأتيهم هذه الرصاصةُ القاتلةُ كلَّ يومٍ، إنها لا تسقط على الأرض بل في صدرِ الصهيونيّ أو وسط دماغه

لقد عقدت معاهدة مع بارودتي ورصاصاتي بألا تخذُلني في تحقيق ثأرَبي، وكانت الجبهة تشتعل جَراءَ مبادرتي هذه، فتسودُ الانفجارات وتتسارعُ الطلقات ويسرعُ الجنودُ في الجبهتين المتقابلتين على تبادُلِ النيران وأنا مُصِرٌّ على محاربتهم وقتلِ أعدادٍ منهم كلَّ يوم.

قال رفيقي: يا عم خليل، ما هي أهمُّ حادثةٍ جرت معك؟ فَرَفَعَ رأسَه وأشار!. إنها هناك ألا ترونها في المنحدرِ المؤدي إلى البحيرة غرب النهر، في المكان الذي ينشئون فيه مجرى لتحويل النهر بقناةٍ توصِلُ المياه إلى أراضي فلسطين المحتلة وحتى النقب.

دخلت في ليلة ظلماء، اشتدَّ فيها المطرُ ولمع البرق وقصف الرَّعد والماء يتدفقُ هائجاً في وسط النهرِ يَهْدُرُ مسرعاً، أَرْسَلَهُ الجبلُ الصامدُ من عَلٍ عَبْرَ الثلوجِ التي تتكدَّسُ على قمةِ جبل الشيخ الأشمّ، وقررت أن أجتازَ إلى الضفة الأخرى في غفلةٍ منهم.

وجدت شجرةَ صفصافٍ كبيرةً قد تهاوت فوق صفحة الماء وشكلت جسراً يساعد في الوصول إلى الطرف الآخر، وكنت كالأفعى أتسلق جُذوعِ الشجرِ وأمدُّ يديَّ ورجليَّ حتى وصلت إلى مبتغايَ، وهناك مَحْرَسٌ فيه جنديٌّ متخاذلٌ أخذه النوم والبردُ إلى حتفه، فطعنته في شِبْرِيَّةٍ ورثتها عن والدي وهي لا تكذبُ خبراً وكانت العاجلةُ في موته.

لَبِسْتُ مِعْطفَهُ وخوذَتَهُ وأخذتُ سلاحه، وسرتُ نحو خيمة قائد الموقع، وكنت أحَيّي من ألقاهُ منهم مثلَ تحيَّتِهِمْ التي أُتْقِنها منذ عايشتهم في فلسطين قبل النكبة.دخلت فوجدتُ الحرسَ قد نامَ وخبَأَ رأسه من لمعانِ البرق وصوتِ الرعود خوفاً وهلعاً، ووصلت مَلْجَأَهُ وهو يَغُطُّ في نومٍ عميقٍ، فأيقظته وأَجْهزتُ عليه وكتمت نفسَهُ، ثم استدرتُ إلى حارسه الذي أفاقَ على شخيرِ قائده وألحقتُهُ به وخرجت بكلِّ هدوءٍ، واتجهتُ نحو الوادي والنهر وتسللتُ إلى الجهة الشرقيةِ من الجبهةِ، واختفيتُ حيثُ مخبئي وكنتُ أرقبُ ردّةَ فعلِ العدوّ على قتلِ قائد الموقع وحراسِه.

وفي الصباح وعندما اكتشفوا ما حَدثَ بَدَأَتْ مدافعهم ورشاشاتهم بإطلاقِ قذائفِها نحو المواقع السورية؛ لتنتقمَ للضابط المصروع وجنوده القتلى، ورَدتْ قواتنا بما يناسبُ هذا القصف وإسكاته وإيقاعِ الخسائر بهم.

وهكذا أقاموا في مغارتي عدة أيامٍ كنت أكشفُ لهم خططي وأن الجرأةَ في العمل الفدائي والإقدام هو أساسٌ في نجاحه، وقد أديتُ الأمانة، وانكَفَأْتُ أسعىٰ إلى أهلي لأطعمهم وأسقيهم وأبيعَ منتجاتي في هذه القرى ومنها قريتكم، بعدَ ضَعفِ نظري وعدم قدرتي على الرؤية الليلية وذلك إثرَ انفجار قنبلة صوتيَّةٍ في وجهي. فقلتُ لرفاقي: كيف لا يُكافئون مثلَ هذا البطلِ. إنه يستحقُّ كل تكريم من الشعبِ والحكومة؟ .

عند الأفــق الغربي

كان جبل الناصرة يظهر علينا عندَ الأُفق البعيدة مرتفعاً في السماء، بيضاوياً وكأن رساماً ماهراً خَطَّهُ عبرَ الجبَال وفي أعلاهُ قُبَّةٌ بيضاءُ وضاءةٌ تلمعُ على ضوء الشمس الساطعةِ في الصباح، إنه بناءٌ أو كنيسٌ أو ديرٌ يرتَفعُ فوق الجبل العالي، وكأن الناس والمؤمنين يريدون أن يتقربوا إلى القوةِ العليا أكثر فأكثر؛ ليُسمعوا دعاءهم لرب العزة بأن يحفظ الله هذه الأرض المقدسة من شرّ المعتدين والغزاةِ الطامعين، خاصة أبناء صهيون والمستوطنين الجدد القادمين من أنحاء العالم؛ ليأخذوا أرضنا ويسيطروا على مقدراتنا ويقتلوا شعبنا، ويستولوا على مقدساتنا منذُ كان الأنبياء والقديسون والصالحون والمؤمنون والقادة العظام،وفي هذا المكان كانت التضحيات والبطولات والانتصارات، وتحطمت الجيوش المعتدية كالتتار والصليبيين،

وكانت المعارك المشرّفة كعين جالوت وحطين واليرموك وفي كل مدينة معركةٌ مع الصهاينة الغزاة المستعمرين الجُدُد، الذين يريدون الأرض خاليةً من سكانها فيَعْمَدون على قتلهم وتشريدهم.

كانت السماء صافية والسكون يلف المنطقة في هذه الليلة المدلهمة. ولا تظهر إلا أنوارُ المدن والمستعمرات في فلسطين تلألأ فيها الأضواء وتنعكس أشعتها فتسطعُ فيها على صفحة الماء الرقراق في بحيرة طبريا. كانت مجموعات الشباب والرجال يسهرون حتى الصباح في طرف الحدود الغَرْبيّةِ في القرى السورية الصامدة عندَ جبال الجولان المرتفعة إلى أطراف السماء، إن أحاديثهم ومشاعرهم تتجه غرباً وجنوباً نحو أحداث مصيرية في بلادٍ عربية غالية طالما ظلت مركزاً للكرامة والعزة العربية ومحطَّ آمال الشعب العربي بالانتصار على الهجمات الشرسة على وطننا الغالي.

إنها مصر العروبة وثورتها الفتية التي أعادت الحق الوطني إلى أهله وقد أَمَّـمَتَ قناة السويس التي شقها الشعب المصري بعزائم سواعده وإرادته القوية. كان الشباب يتحدثون عن البطولة والإقدام المسيطرِ على كتائب المقاومة الباسلة في مدن قناة السويس وأرجاء مصر العربية، وهي تردُّ هجمات الغزاة المستعمرين والصهاينة في عدوانهم الثلاثي الخطير على القناة بعد أن تم تأميمها وإعادتها إلى أصحابها المصريين أحفاد من حفروها وشقوها بينَ بحرين؛ لتكون خيراً لهم لا شراً عليهم كما أرادها المعتدون. إنه العدوان الثلاثي على الجمهورية الفتية ويريدون إسقاطها والسيطرة على هذه المنطقة والوطن العربي، حيث كان الشعور القومي ينتشر في مواجهة مخططات الاستعمار والمتعاونين معه، فهذه جَذوةُ الثورة والحماسة تسيطر على هؤلاء الشباب وهم يسمعون أنَبْاءَ المعركة،

واكتساح المقاومة للغُزاة المعتدين البريطانيين والفرنسيين والصهاينة المجرمين، إنها قوى الاستكبار العالمية تهجم على دولة فتية وثورة شعب عربي يريد استرداد حقوقه المغتصبة، وصمت المجتمعون؛ ليستمعوا للأنباء التي ترفع رأس العربي في ساحة المعركة وخارجها، قال أحدهم: كيف الوصول إلى خط الجبهة المفتوحة هناك والمشاركة فيها؟ قال آخر: إن المتطوعين العرب والسوريين يُشاركون فيها وقد التحقوا بالمعركة عبر منظمات وطنية وأحزاب قومية، وها هو البطل المقدام جول جمال الضابط السوري العربي يَشْتَبِكُ في معركة مع أَكْبَر بارجة فرنسية تَشْتَرِكُ في العدوان، ويصيبها بطوربيده ومتفجراته ويعطبها ويقتل ويجرحُ الكثير من المجرمين المعتدين، وقدَّمَ روحه ودَمه في ساحة الشرف العربية، إنه المثال الذي يجب أن يُقْتدى من كل عربي فَوَطَنُنا واحد ولن نعتَرِفَ بكلِّ هذه الحدود المصطنعة، وعدونا واحد كالمستعمرين والصهاينة ومن يتعاون معهم.

وفي ظلمة الليل الحالك وعبْرَ الأفق البعيد كان نوراً كان لمعاناً متلاحقاً كان برقاً، خلف جبل الناصرة باتجاه الغرب الممتدِّ حتى ساحلِ البحر الأبيض المتوسط الذي يبتعدُ عشرات الكيلومترات عن جبل سكوفيا الصامدة وعشرات القرى في الجولان الأبي في منطقة الزوية الجميلة وشعبها العربي الأبي.

قال الفلاحُ أبو أحمد: إنه الصيف فلا مطر ولا برق ولا غيوم لتخلِّف هذا الوميض المتلاحق. قال الراعي حسن: لن تسرح الأغنامُ غداً، إذا جاءت عاصفة الصيف فهي شديدة المطر والضرر. قال العسكري المساعد العارفُ بأحوال الحروب وقد خاض الكثير منها: إن هذا لمعٌ لمدافعَ متلاحقة، فهي تبدو في مكان واحد تتمركزُ فيه. قال آخر: كيف تكون كذلك ولا نسمعُ لها أصواتاً من تفجيرات قنابلها، وأين يوجد مكانها فإن المعركة بعيدةٌ عنها بعشرات الكيلومترات؟!

وفي الصباح فتح الشباب المذياع، وكان الخبر الذي طالما بحثوا عنه بلهفة وشوق: إنها البارجة (إبراهيم) إنها القطعة البحرية المصرية وعليها بحارةٌ شجعانٌ هاجَمت ميناء حيفا الذي يضم قطعاً حربية صهيونية.

إنها العملية الفدائية البحرية التي قررت القيادة المصرية توجيهها إلى أكبر ميناء صهيوني، وكانت مدافعُها تدكُّه دكاً بهذه القنابل المتفجرة المتوهجة فتقتل وتحرقُ وتدمّرُ ما قدرتْ عليه، وكان نورُها ولمعانها ينتشرُ في الأرض والسماء وعبر الأفق، فتلمعُ وتبرقُ وتشقّ ظلمةَ الليل حتى الحدود السورية، وبعد معركة حامية الوطيس مع القطع البحرية والجوية الصهيونية، أُسِرتِ المدمّرةُ (إبراهيم) رافعةً الرأسَ هي وبحارتها الشجعان وقائدها المقدام والشهداء الأبرار، ولن ينس الشعب العربي والمصري بطولاتهم وشجاعتهم.

الشـــيخ المقـــاتل

في كوخ بدائي مبني من الخشب والطين والتبن والخشب والحجارة، ويحيط به سياج من الشوك والصّبار مدعماً بالأسلاك ونباتِ العليق والسِّدْرِ والزيزفون، وقد اتخذت منه لعصافير والأرانب أعشاشاً لها، كان الكوخ محاطاً بأشجارِ اللوزِ والتين والرمان والعنب والزيتون والتوت. عاش الشيخ أحمد في هذا البيت بجوارِ ضريح لوليٍّ مشهورٍ! وقد أصبح مزارُه مرتعاً للقادمين من شتى القرى للتبرُّكِ والدعاءِ والتقرب إلى ربِّ العالمين. كان الشيخ يَخْدُمُ هذا المزار ويحميه، ويقدمُ للزوار الماء والخبز وما يستطيعه من موجودات دواره، وقد رفع فوقه أعمدةً تحميه من عوامل الطبيعة، وزينه ونصبَ الأعلام الخضراء فوقه. كان الشيخ يربي الحيوانات الأليفة في دُواره، يرعاها وقد أوكلَ بحراستها كلبين شديدين لا يتركانها ليلاً أو نهاراً.

أنشأ الشيخ أحمد قناةً جَرَّ فيها مياهاً من السيل القريب إلى حيث يزرعُ ويسقي النباتات والحيوانات منها، وفي زاوية يضعُ جَرَّةً كبيرة يملؤها بالماء الزلال من منابعَ في الوادي يحضرها على دابته؛

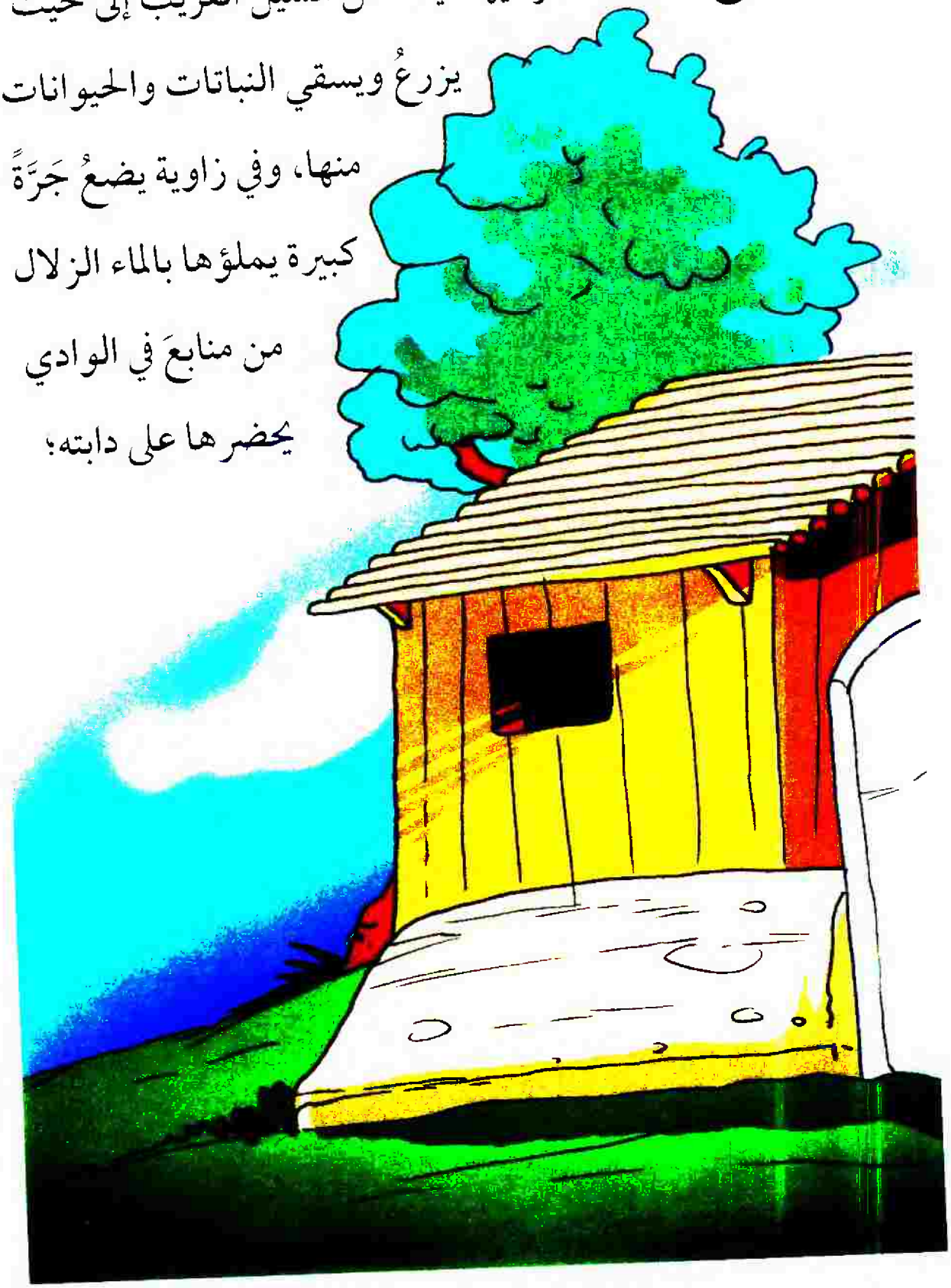

لتشربَ النَّاس التي تحضُر إلى حيث المزار، وكان يقدم لهم الأواني والأدوات اللازمة لصنع طعامهم وتقديمها للزوار من نذورٍ نذروها وأضحيات ضحوها. كان الشيخ يحلبُ حليباً وافراً من مواشيه ويرضع الصغارَ من أمهاتها. ويجمع البيض من خُمَّ الدجاجِ، وغالباً ما يجدُ أعشاشاً بينَ السّياج وتحت أفْرُعِ الشجيرات مملوءةً بالبيض، وَحدث في أواخر فصل الربيع أنْ كانت بعض الدجاجات تخرُجُ بعد غياب دام واحداً وعشرين يوماً ومعها مجموعةٌ من الصيصان. فَرَّخت بعيداً عن أعين الشيخ وسط الحشائش وكانت مهزولةً ضعيفةً من قِلَّةِ الأكلِ وهي ترقُدُ على بيضها خوفاً عليه إذا غادرته، فأسرع إليها الشيخ يُطعِمُها ويسقيها وينثر العلفَ للصيصان، ويرتب لها مكاناً آمناً عن القطط والنسانيس التي قد تتصيدها.

كان الناس يحضرون إلى المزار ومعهم الضَّحايا والنذر والهدايا، يذبحونها في الساحة ويطبخونها والشيخ يقدم لهم الأواني والمياه والبسط، فيقضون نهارهم تحت شجرة الخَرُوبِ الوارفةِ مستمتعين مسرورين بما قدَّموا وأكَلوا وأَطْعَموا ودَعَوُا الله من أدعية الرحمة والغفران. وفي زاوية من المزار خابيةٌ كبيرةٌ مصنوعةٌ من الفخارِ يملؤها بالماء يومياً، يحضره على دابته من بطنِ الوادي فيبقى في خابيته بارداً فيشرب منها كل شاربٍ، ماءً مباركاً، وقد عبقت الزاوية برائحة البخور، وتعلو أصواتُ المُصلين، وكانوا يتلون آياتٍ من الذكر الحكيم ومنهم من يناجي ربه بالأدعية المباركة، ويرجون من الله الرحمة والغفران.

ذهب الشيخ ليَسْتَطْلِعَ خلايا النحل في زاوية كرمه، وتذكر أنه حان وقت قِطافِ العسل خاصة في ربيع وزهر الوادي هذا العام بموسمٍ جيدٍ،

وزاد فضله تعالى للناس فغمرتِ المياهُ الوديانَ وجَرَتْ تملأ الغدران والبحيرات الصغيرة فتذهب إلى بحيرة طبرية الواسعة، كما أن السهول قد اخضَرَّتْ بالنباتات البَاسقة والحقول تلونت بالأزاهير المزركشة وكأنها بساطٌ سندسيٌّ أبدَعه خالق الأكوان، فسبحان الله رب العالمين. وجد الشيخ أقراصَ العسل وقد ملأها النحلُ بأطيب مذاق، وأبهى رائحة من أريج الأزهار في بطن الوادي من نباتات الأقحوان والزعتر والشَّمْرا والبنفسج، وأشجار الرمان واللوز والتوتِ والتفاح.... وغيرها. قرر الشيخ قطف أقراص العسل فعبأها في جراره وأوانيه؛ ليقدم منها لضيوفه وللزائرين لهذا الولي في دواره إلى جانب الزبْدَةِ والقشطة والسمن.

دعا الشيخ دعاءَه أن يحفظ الله هذه النعمة ويديمها على المؤمنين، وأن يبعد عنهم أذى الأشرار الصهاينة المعتدين الطامعين في أرضنا وخيراتنا، بعد أن استولوا على أرض فلسطين الحبيبة وشرّدوا أهلها وقتلوا الكثير منهم. صلى الشيخ صلاة الظهر جماعة مع بعض الزائرين والمزارعين والقادمين على الطريق المحاذية لداره، ورَدَّدوا معه الأدعية التي يتلوها بعد كل صلاة لحفظ البلاد والعباد. وقف الشيخ مناجياً الله، أن يُبْعِدَ عنهم شرور العدو الصهيوني المغتصب لأرضنا في فلسطين الحبيبة، وهم يطمعون بالتوسع واحتلال المزيد من الأرض العربية، وفي كل يوم يَمُرُّ عدوانٌ يطلقون النار على المزارعين والأهالي، ويحرقون المحاصيلَ والبساتين المزروعة منذ عشرات السنين بالزيتون والتين والعنب والرمان والتفاح .... وغيرها. فتح الشيخ صباحاً زريبتَه للماشية، فخرجت الحيوانات تثغو وتتراكض إلى خارج الدوار

وهي تبحث عن صغارها الجائعة كي تُرضعها وتحنو عليها.

فحلب وعاءً كبيراً من الحليب ليقدمه إلى كل من يؤُمُّ دارَه ودُوّارَه في هذا اليوم. كما فتح خمَّ الدجاجات، فخرجَ الديكُ يصيحُ بأعلى صوتهِ ويصعَدُ إلى السطح ينفُشُ ريشه زهواً وكبرياءً وتحدياً للديوكِ الآخرين، وأنه المسيطر على قطيع الدجاج. ثم أخرج الشيخ سَلةً من البيضِ وعَلّقها في زاويةٍ من عريشة؛ ليقدمها طعاماً للزائرين مقلياً بالسمن والزبدة. أما الخبزُ فكان يصنعُه من دقيق القمح الأسمر المنتج من حقله المزروع بالسفح القريب، لقد فلح الأرض بمعوله وقلبها على حباتِ البذارِ بقوَّةِ زنودِه، واعتنى بالزرع تعشيباً وسقَايَةً وحصدها واستخلص حباتِ القمح من سنابلها الذهبية. تدعى الحاضرون إلى طعام في دوار الشيخ من لحم وزادٍ، فأكلوا وشربوا الشاي وتحلوا بالعسلِ، وحمدوا الله على نعمه! مرَّت دوريةٌ من أفرادِ الجيش العربي السوري جانب دار الشيخ،

فحياهم مرحباً ودعاهم للمشاركة في تناول الطعام، وقَدَّمَ لهم قصْعَةً مملوءةً باللحم والزادِ المطبوخِ بالسمن العربي فهم يستحقون كلَّ تكريم، وقد وضعوا أمن الوطن من أولويات أهدافهم ومستعدون للتضحية في سبيله، وهاهم يدخلون كلَّ يوم في معركة مع عدوٍّ غاصبٍ، مُزَوَّدٍ بأسباب القوَّة والغطرسةِ من قبل دولٍ استعمارية مستكبرة، تريدُ احتلالَ أرضنا وخيراتنا كما فعلت في فلسطين العربية عندما قتلت وشَّردت أهلنا فيها.

وعند العصر ظهرت في الأفق خطوطٌ بيضاءُ تلمعُ على ضوءِ الشمس، إنها طائرات العدوّ الصهيوني، ويعرفها أهلُ الحدود عندما تظهرُ فيتراكضون لتجنبِ أذاها الذي أصبحَ متكرراً على قُراها وأهلها وتثيرُ الرعبَ بين الأطفال والنساء، فتقصفُ وتدَمّرُ وتقتلُ الإنسان والحيوان وتحرقُ الأرزاق والبيوت.

كان ابن الشيخ (سالم) قد تطوَّعَ في كتيبة الحرس الوطني المرابطة على الخطّ الأمامي تجاه العدوِّ الصهيوني في فلسطين المحتلة، وكان صوت المدافع والرشاشات يصدرُ من هناك حيث ولده، فأنصتَ يُميِّزُ بين دويِّ الانفجارات ويقولُ في نفسه: هذه رشقاتُ الرشاشِ الذي يَرْبُضُ عليه (سالم) إني أعرفه فهو رامٍ ماهر ورصاصاته تصيبُ قلبَ العدوّ، ودعى ربه أن ينصره وإخوته المقاتلين على هؤلاء المعتدين المجرمين، الذين استولوا على حقوق المؤمنين من أهل فلسطين.

وفي الصباح التالي جمعَ الشيخُ ما قَدرَ عليه من زوّادَةٍ غنيةٍ بالخبز والسمن والزبدة والعسل، وركب على حصانِه متوجهاً نحو الموقع الذي يتمركز فيه ابنه المقاتل (سالم) قبالة الحصون الإسرائيلية المدججةِ بكلِّ أسلحة الدمار الحديثة التي تمدهم بها قوى الغرب وأمريكا الاستعمارية، إنهم يريدون منا أن نستسلم لإرادتهم ونسلّم لمخططاتهم، ولكن شعبنا الصامد سيظل يدافع عن أرضه ووطنه مادام فيه رجل أو امرأة، طفل أو كهل، جنديٌّ أو مقاوم حتى الرمق الأخير.

ولما عاد الشيخ إلى دواره عند المساء، وقد تكاثر الضَّبابُ خاصة الوادي، وبينما كان قطيعُ الأغنام عائداً من مرعاه باتجاهِ القرية، سمع نداءَ استغاثة من الراعي وقد اشتدَّ نباحُ كلابه، فعرف أن الأمر خَطرٌ! ولا بدَّ من نجدةِ الراعي!... فأسرع ومعه عصاهُ الغليظة، لما وصل وجدَ الراعي والقطيع وقد تكاثرت عليهم الذئاب، تريد افتراس الأغنام، ووجد كلبيه قد دخلا معركة معها، فما كان منه إلا الهجوم على هذه الوحوش وهو على ظهر حصانه المقدام،

ويضربها بعصاهُ الغليظة مع الراعي وهي تراوغهم كي تحصل على خروف أو جدي ولكنهم تغلبوا عليها وأبعدوها عن القطيع خاصة بعد حضورِ مجموعةٍ من عناصر الجيش القريب من المكان وإطلاق النار عليها والتخلص من أذاها، واختفت داخلَ المنطقة العازلة الواقعة بين قواتنا وحصون الصهاينة، حيث كثرت وتوالدت وأصبحتْ تشكل خطراً ومَصدْراً للبُؤَر المؤذية كالضباع والخنازير البرية التي تَخْرُجُ قِطعاناً فتُتلِفُ مزروعات الفلاحين.

فتح الشيخُ المذياع وسمع إذاعة العدوّ تُهدِّدُ وتَتَوَعَّد قواتنا الباسلة التي تذيقهم كل يوم طعمَ الهزيمةِ والخذلان، وتردُّهم عن تحقيق مآربهم بالسيطرةِ على منابع المياه واحتلال الأرض العربية.

كان الناس يتوقعون الهجمة الشرسة على الجبهات العربية وخاصة الجبهة الشرقية في سورية، ومرت الذكرياتُ في مُخيلة الشيخ، يوم هاجموا القرى العربية في فلسطين ودمروها، وقتلوا أهلها في دير ياسين ونحالين وقبيه وكفر قاسم وغيرها.

إنهم مجرمو حرب يكرهون الإنسانية ويريدون العالم لهم فقط. ونحن العرب المسالمون الذين استقبلناهم يوم طردهم الإسبان، وآويناهم يوم محنتهم واكتووا بنار النازية والفاشية، فتطاولوا على حقوقنا وأهلنا ومقدساتنا في القدس والخليل والضفة الغربية وفي كل يوم مأساةٌ ومجزرة تلحق بالعرب، وإذا لم نقف موحدين تجاههم بوَجْهِ هذا المدّ الاستيطاني واجتثاث بُؤْرَته فسوف نلقى الهوان والخذلان.

ولكن الجيش العربي السوري يقف لهم بالمرصاد ويدكُّ حصونهم ويدمّرُ آلياتهم، خاصة الحفارات التي تعمل لإكمال جرّ المياه من نهر الشريعة؛ كي يوصلوها إلى مزارعهم ومسامِكِهم في فلسطين المحتلة، ويتركوا أهل هذه المنطقة وأصحاب الأرض دون مياه، فيموت الزرع ينشف الضرع ويسود الجفاف القرى العربية شرق البحيرة كالبطيحة وغور الأردن، وقد استولوا على المياه العربية وانتفعوا بخيراتها، ويمنعون السكان من الوصول إليها فيقتلون القطعان والرعاة والمزارعين والصيادين إذا دخلوها،

إن لهم أسطولاً حربياً يُسَيّرونه في مياهها ويُرابطون تجاه لشاطئ الشرقي للبحيرة، ويوجهون أسلحتهم إليها.

هزت الانفجارات المنطقة الجنوبية من الجبهة، ودوّى صوت الطيران المعادي في سمائها، وأطلقت المدافع المضادة للطيران قنابلها المتفجرة نحوهُ فأبعدته عن هدفه، وعن مربض المدفعية الثقيلة التي كانت تدكُّ موقعاً متقدماً تحت مدينة صفد ففجرته واشتعلت فيه النيران، يالها من إصاباتٍ محكمة، ورمايات ماهرة اشترك فيها الرامي والراصد والموجه، إنهم الجنودُ الشجعان العرب السوريون. تناثر حطامُ الموقع المعادي وأعْطبَتِ المدفعُ فيها وهلَّلَ أفرادُ الجيش والشعب في الحدود السورية لهذا الانتصار، وفرحوا على إبعاد هذا الخطر وهم يردّدون الشكر لله تعالى على هذا النصر. عند الفجر استيقظ الشيخُ ليؤدي صلاة الفجر، ورأى بقربِ داره حركةً فتحقق منها فإذا هم: دوريةٌ معاديةٌ تقوم بوضع جهازٍ على خطوط الاتصالِ الهاتفية.

فعرفَ مكانهم وأسرعَ نحو ثُكْنَة الجيش يُعْلِمُهُمْ بذلك، وجاؤوا يلاحقون الأعداء ويزيلون الجهاز التجسسي، ويْحملونه معهم لفحصه.أَكْبَرَ قائدُ الموقعِ عملَ الشيخ وزوَّدَه بسلاحٍ وذخيرةٍ ووكَّل به من يُدرّبه عليهِ، رغمَ أن الشيخ أكَّد له أنه قد خاض معاركَ في فلسطين مع جيش الإنقاذ ويعرف استعمال السلاح.

شاهد السكانُ المجاورون لِدارِ الشيخ السلاحَ عنده، وطلبوا منه الوسط لدى القائد لتزويدهم بهذا السلاح، حتى يستطيعوا الدفاع عن عرضهم وأرضهم وممتلكاتهم ضد عدُوٍّ لا يرحم مدنياً أو عسكرياً ولا كبيراً أو صغيراً، فكان لهم ذلك بفضل عملِ الشيخ ومعرفتهِ للقائدِ الذي وَكَّل بهم مدَرّبينَ وقيادة تشرف عليهم وتنظم عملهم ضمن تنظيم الجيش الشعبي، الذي يضمُّ جميع القادرين على حمل السلاح في هذه المنطقة من الجبهة، للمساهمة بالدفاع عنها.

مرَّت الطائرةُ المعادية فوق حقول الفلاحين، فشاهدها الشيخُ وجيرانه وهي تُلقي بأشياء وصناديق مشبوهة، وبعد أن نصحَ الشيخُ الناس بعدم الاقتراب منها، أسرع يُعلم القيادة بذلك، وعندما حضروا وجدوها بأشكال ألعابٍ وحوائج تُغْري الأطفالَ، ثم تنفجرُ بهم عند استعمالها، فجمعوها وفجروها وأبعدوا خطرها عن السكان.

نظَّمَ الشباب والرجال في المنطقة دوريات بمشاركة عناصر الجيش لمراقبةِ وحراسة الحدود من اعتداءات الصهاينة وخَرقِهم لخطّ الهدنةِ، فكمنوا في الطرقات والوديان وعلى رؤوس التلال، وفي ليلةٍ مدلهمةِ السواد باردة والمطرُ ينهمرُ والريح تعصفُ، وهم يتربَّصون بالعدوِّ الذي لا ينفكُّ عن عدوانه على قراهم، وقد اكتشفوا دوريَّـةً معاديَةً تعبُرُ الحدودَ وتقتربُ منهم للوصول إلى هدَفها في هذه المواقع، ولما اقتربت أكثر فتحوا عليها النار وأوقعوا فيها القتلى والجرحى، وشتتوها بين الوديان حاملة معها المصابين والقتلى وتكبدت خسائرَ فادحةً وتركت أسلحةً وذخائر في أرض المعركة.وفي صباح اليوم التالي، كانت الإذاعة السورية تَبُثُّ النبأ، وأن عناصر الجيش والمقاومة الشعبية قد صدَّتْ اعتداءات الصهاينة وأوقعوا بهم كثيراً من الخسائر، وردُّوهم على أعقابهم حاملين العديد من القتلى والجرحى...

رَفعَ الشيخُ رأسه شامخاً فخوراً بما أنجزَهُ هو ورفاقهُ، وبمساعدة عناصر الجيش الوطني الباسل الذي يحرس هذه الحدود ويحمي الوطن والمواطن والأرزاق.

كانت إذاعة العدو تهدِّدُ وتتوعَّدُ وكأن العرب المدافعين عن حِماهم وأرضهم هم المعتدون، وأن عليهم الرضوخَ لِمُخطَّطاتِهم والاستسلام لإرادتهم، إنه منطق القوي المعتدي المتسلح بالقوة ودعم الاستعمار الغربي الذي يريدنا أن نكون طوعَ أمره مسلوبي الإرادة مقهورين، ولكنهم ما عرفوا أن كرامة العربي تسري بدمائه ولن يستسلم ولو ضحى بروحه.

وفي مساء ذلك اليوم المطير الحالك السواد من أواخر شهر كانون الأول عام 1955م وبعد منتصف الليل، كان الشيخ يأوي إلى فراشه يأخذ قسطاً من الراحة بعد تعبٍ وعناءٍ و مجهودٍ بَذَله في نهاره، وهو الرجل الكهل الذي يكابِرُ على نفسه ويُحَمّلُها أكثر مما تطيق.

دوّت الانفجارات في محيط البحيرة، وعرفَ أن العدوَّ بدأَ بتنفيذ تهديداته وعدوانه على المخافر السورية في الشاطئ الشرقي الشمالي لها، وهكذا فإن الشيخ انشغَلَ وَبَدأ يُجهِّزُ بارودته وذخيرته، وركبَ مسرعاً باتجاه المنحدرِ المؤدي إلى ساحة المعركة الملتهبة في أكثر من موقعٍ، وكان ابنه سالم في واحدٍ من هذه المواقع المستهدفة، والانفجارات تهزُّ الوادي وتضيء الأرض والسماء، وأصواتُ الرشاشات تتلاحقُ تشتدُّ كلما اقتربَ العدوُّ من إحدى المخافرِ.

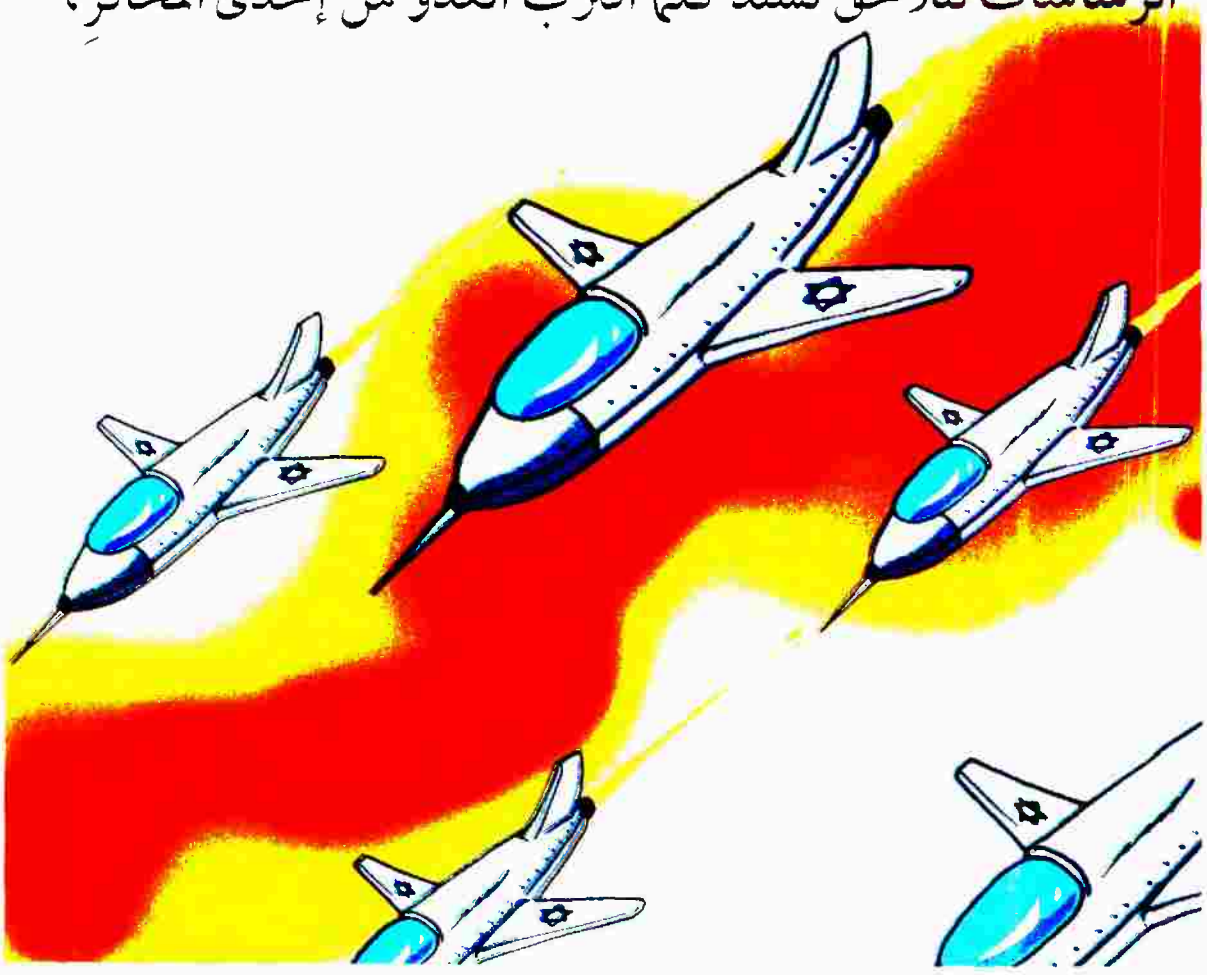

أما ابنه سالم فكان مَخْفَرُهُ مُنزوياً بعيداً عن الشاطئ. وحاولَ الأعداءُ الوصولَ إليه ولكنه يلهبهم بنيران رشاشه فيحصدهم ويُعيقُ تقدُّمهم، كما أنه يدفع بهم بعيداً عن بقيةِ المخافرِ المحاصرة بالدّبابات والآليات، وأخذ يتنقَّلُ من مكان إلى آخر مع رفاقه الأشاوسِ، فيلتفُّ عليهم يَقْصفُهم ويُلقي عليهم القنابل الهجومية مع مجموعة من قوّات النجدة بقيادة الملازم سعيد قزيز، حضرت لنجدة هذه المخافر التي أُخِذَت على حين غِـرَّةٍ وبوقتٍ واحدٍ مُخطَّطٍ له، وكانت القوات المعادية كبيرةً والزَّوارق الحربيةُ تسانِدُها بالقذائِف والرشاشات المتلاحقة. أطلقت المدافع المتمركزة في مواقع سورية على الجبال المحيطة بساحة المعركة قنابلها على أرتال العدوّ المتقدم من الشاطئ الشمالي والشاطئ الجنوبي للبحيرة، الذين يتقدمون باتجاهين يريدون تدمير كلّ المواقع السورية التي تحمي الشاطئ،

فهي شوكةٌ في حلوقهم وتمنعُ زوارقهم من الاقتراب شَرْقَ البحيرة وتُفَرِّقُها وتعطبُ كثيراً منها وتقتلُ طواقمها،وكذلك فهم يهدفون من عدوانهم إرهاب السكان العرب السوريين في البطيحة والكرسي والدوكة ونُقيب العربية، حتى يبتعدوا عن مياه البحيرة، لمنعهم من الصيد فيها، أو الاستفادة من مياهها، ولكن ذلك لن يحدث فهؤلاء رجالٌ مقاتلون حملوا السلاح جنباً إلى جنبٍ مع أفراد الجيش العربي السوري وهمَ شجعانٌ حالما تحدوا هذا العدوَّ وردوه عن أرضهم ومياههم، فوَصَلوا إلى زوارق صيدهم وأعطبوها وأغرقوا الشِّباك لهم، والتي يسرقون بها سمك البحيرة على شاطئها الشرقي حيث يكثر الصيد ويتكاثر السمك.كان الشيخ في الطريق المؤدي إلى ساحة المعركة يسرعُ وهو على ظهر حصانه، يريد الوصول حيث ابنه سالم يَرُدُّ العدوان مع مجموعاتٍ من رفاقِه الشجعان.

ويا هولَ ما رأى! فارِسٌ مغوارٌ قد أثخنته الجراح مُلقى في وسط المنحدر وإلى جانبه حِصانه المقتول بطلقاتٍ من رصاص قريب.

وقد جاءَ بطلب النجدة بعد أن قطع الأعداءُ الاتصالات معهم.

اقترب الشيخ من الفارس فعرف أنَّه المراسِلُ الحربيُّ للمواقعِ المطوَّقة بقوات العدوِّ الصهيونيّ، وكان به رَمَقٌ أخيرٌ.

ولما رأىٰ الشيخ، قال قبل أن يُسْلمَ الروح لباريها: أَبْلِغْ أمي أيها الشيخ أنـني ما جَبنت عن مواجهتهم، ولكنهم غدروني عندما أعلموني أنهم قواتٌ عربية جاءت لنجدة المواقع المحاصرة. فادعُ معي أيها الشيخ عليهم وأن يأخذهم الله أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ ويُريقُ دمهم كما أراقوا دمي ويجعلهم عبرَةً لمن يعتبرُ، وكان الشيخُ يرفع كفّيه إلى ربه وأن يحقق دعوةَ هذا الشهيد البطل وبقية رفاقِه المغدورين، من قبل هؤلاء كالملازم الأول ممدوح نره شولي الذي وقعَ في كمينهم في موقع سكوفيا، وهو يُسرعُ مع رفاقِهِ المقاتلين أفراد سريته فاشتبك معهم ووقعَ مضرجاً بدمه مع مجموعة من رفاقه وحالوا بينه وبين المخافر المحاصرة، ولم يدعوا له فرصة لنجدتها وَفَكِّ الحصار عنها، واستُشْهِدَ بطلاً وهو يطلق النار عليهـم حتـى الرمـق الأخيـر.

أما هؤلاء الغادرون المجرمون فوَقَعوا في كمين نصبه سالم ورفاقه على طريق المنحدرِ إلى شاطئ البحيرة، وهم يحاولون لالتحاق بقواتِ الغزو هناك، فكانوا يقعون الواحد تلو الآخر يتخبطون بدمائهم ولا يعرفون من أين تأتيهم الرصاصات فكانت نهايتهم، وحقق ربُّك دعوة الشهيد البطل المراسل والشيخ المؤمن الجليل واستجاب لهما. أما قوات الغزو في ساحل البحيرة، فقد اشتبكت مع بعضها؛ فمنهم من جاء من الشمالِ ومنهم من جاء من الجنوب، فوقعوا بشرِّ أعمالهم لا يعرفون من هو عدوهم من صديقهم، فقتلوا بعضهم برصاصهم ورصاص المجاهدين من حولهم. وبانفجار قنابل المدفعية السورية من تلال شكوم وسكوفيا والدير عزيز.

وهكذا قرر الأعداءُ الانسحاب من أرض المعركة يجرُّون قتلاهم ويَحْمِلونَ جرحاهم، وقد فشلت حملتهم في تحطيم الدفاعات العربية السورية على الشاطئ الشرقي للبحيرة.

وقد عزَّزت عند المواطنين والجنودِ والمقاتلين من الجيش الشعبي عزمهم على التمسك بأرضهم وحقهم بالدفاع عنها بكل ما ملكوا من قوةٍ، وأنهم قادرون على رَدِّ العَدوّ والحفاظِ على أرضهم ووطنهم من اعتداءات الصهاينة.

وفي الصباح حملَ الجنودُ والمقاتلون جثامين الشهداء الأبرار الذين دافعوا عن حمى الوطن، وضحوا بأرواحهم ودمائهم على مذبح الشرف والكرامة، ومنهم الضباط ممدوح قره شولي وسعيد قزيز والعطار وهم يردون الأعداء عن المخافر المحاصرة وإنقاذ حامياتها، أما جثةُ المراسلِ البطلِ المغدورِ فأبّنه جمع من أبناء قريته وفرقة من الجنود رفاق السلاح، وبدت والدته فخورةً باستشهاده ولم تذرف الدموع حسب وصيَّته التي أوصلها الشيخُ أبو سالم، الذي حضَر جنازتهُ وعزاءَهُ المهيب.

وفي أرض المعركة ظهر المقاتلُ سالم ورفاقه وهم ينفضون غبارَهم.

ويرفعون رؤوسهم عِزّةً وشموخاً على ما فعلوه من نصرٍ
غالٍ وانهزامٍ مذلٍّ لهذا العدوِّ.

الفهرس

الإهـداء 3
مقدمة 4
تعريف للجولان 7
وصف للجولان 11
ليالي الشتاء في الجولان 15
حصاد حقل القمح في الجولان 24
البيدر وجني الغلال 33
قصة أبو مصطفى اللوباني 46
قصة العريف أبي حسـان 52
قصة الجدَّةُ الطبرانية 56
قصة العمة أم صالح 58
قصة أبي فتحي التاجر 63
قصة أبي سليم الصفدي 65
قصة طابَ الموتُ يا عرب! 74
قصة الأحصنة الطائرة 85
قصة رحلة خطيرة 94
قصة الولدين الشجاعين 110
قصة معركة الجنوب في الحمة 117
قصة معركة الشمال عند مصب النهر 131
قصة عند الأفق الغربي 145
قصة الشيخ المقاتل 152

المؤلف

عمر بكر المرعي

- ابن قرية اسمها سكوفيا في الجولان المحتل.

- ولد عام 1938م في قرية سكوفيا.

- درس الابتدائية والإعدادية في منطقته ودار المعلمين بدرعا وحمص.

- حصل على إجازة الحقوق من جامعة دمشق.

- عمل في سلك التربية والتعليم في محافظات السويداء ودرعا والقنيطرة ودمشق.

- سافر في بعثة تعليمية إلى الجزائر.

- له من المؤلفات :

1 - حكايات وبطولات من الجولان .

2 - عند الحدود الجنوبية الغربية من الجولان.

3- الكَمين .